موسوعة نداءات

القرآن

نداء الذكر الإلهي

نداء الذكر الإلهي

محاضرات

الشيخ محمود نعمة الجياشي

بقلم

السيد نجاح الموسوي

التقريض

الحمد لله الذي شرّفنا بنداء ((يا أيها الذين آمنوا)) ليقرع أسماع قلوبنا وينير بصائر نفوسنا تنبيهاً لنا من رقدة الغافلين ليخرجنا من ظلمات العالم الأدنى إلى نور العالم الأعلى وأفضل الصلاة وأتم السلام على المنادي برسالته الخاتمة التي دعانا فيها لما يحيينا عبده المنتجب ورسوله المصطفى محمد بن عبد الله وعلى آله الأئمة الهداة الميامين وعترته الطيبين الطاهرين .

وبعد ..

هذا هو الجزء الثالث من الأبحاث القرآنية التي ألقيناها على مجموعة من الإخوة الفضلاء المحصّلين في الحوزة العلمية الشريفة أيام الأحد من كل أسبوع، والتي كانت تدور حول موضوع نداءات القرآن، وقد قام سماحة الأخ العزيز السيد الفاضل نجاح الموسوي دامت توفيقاته بتقرير هذا البحث الذي كان مخصصاً لنداء الذكر الإلهي وإخراجه بهذه الصورة الماثلة بين يدي القارئ الكريم.

وإذ أبارك له جهوده المميزة شاكراً له سعيه الدؤوب في

متابعة وإنجاز هذا البحث أدعو الله العلي القدير أن يوفقه للاستمرار في خدمة معارف القرآن الكريم وأن يكون جهده المبارك هذا ذخراً لنا في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

محمود الجياشي

٢٥ محرم الحرام ١٤٤٠

النجف الأشرف

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على حبيب إله العالمين المذكِّر الأكبر الرسول الأعظم خاتم النبيين محمد بن عبد الله وعلى آله الهداة الميامين .

إلهي أنت قلت وقولك الحق: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[1] .

وقلت وقولك الحق: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[2] . فأمرتنا بذكرك ووعدتنا عليه أن تذكرنا تشريفاً لنا وتفخيماً وإعظاماً .. وها نحن ذاكروك كما أمرتنا فأنجز لنا ما وعدتنا يا ذاكر الذاكرين ويا أرحم الراحمين.

وبعد:

الكتاب الذي بين أيدينا يمثل تقريراً للمحاضرات التي ألقاها سماحة الأستاذ الشيخ محمود الجياشي دام توفيقه في موضوع الذكر الإلهي على مجموعة من فضلاء الحوزة العلمية في

---

(١) الأحزاب: ٤١-٤٢.

(٢) البقرة: ١٥٢.

النجف الأشرف، حيث جاءت هذه الأبحاث ضمن سلسلة محاضرات قرآنية تحت عنوان (النداءات القرآنية) ويمثل هذا الكتاب النداء الثالث بعد النداءين السابقين وهما (نداء العبادة) و (نداء التوبة).

جدير بالذكر أن البحث في (نداء الذكر الإلهي) بلغ خمسة عشر محاضرة تم تقريرها في عشرة مباحث كونت بمجموعها هذا الكتاب الذي عرض موضوع الذكر الإلهي وأثره الكبير في حياة الإنسان من خلال إشارات وتأملات لطيفة ومعمّقة مستنداً إلى معطيات المنهج القرآني حول الذكر الإلهي.

وبسبب تنوّع الأبحاث ومضامينها فقد تم تثبيت مجموعة من العناوين الفرعية في كل مبحث تسهيلاً على القارئ الكريم.

ولا نريد في هذه المقدمة استباق الأبحاث والخوض في بعض تفاصيل هذا البحث تاركين ذلك لما طرحه سماحة الشيخ المحاضِر من الأبعاد العقائدية والأخلاقية والقرآنية والنفسية والاجتماعية المتعلقة بالذكر الإلهي.

سائلين المولى سبحانه وتعالى أن يحفظ شيخنا الأستاذ وأن لا يحرمنا من بحوثه القيِّمة. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

السيد نجاح الموسوي

٢٠ محرم الحرام ١٤٤٠

مناجاة الذاكرين

بسم الله الرحمن الرحيم

إلهي لَوْلا الْواجِبُ مِنْ قَبُولِ أمْرِكَ لَنَزَّهْتُكَ مِنْ ذِكْرِي إيّاكَ، عَلى أَنَّ ذِكْرِي لَكَ بِقَدْرِي، لا بِقَدْرِكَ، وَما عَسى أَنْ يَبْلُغَ مِقْدارِي، حَتّى أُجْعَلَ مَحَلاًّ لِتَقْدِيسِكَ، وَمِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ عَلَيْنا جَرَيانُ ذِكْرِكَ عَلى أَلْسِنَتِنا، وَإذْنُكَ لَنا بِدُعآئِكَ، وَتَنْزِيهِكَ وَتَسْبِيحِكَ.

إلهي فَأَلْهِمْنا ذِكْرَكَ فِي الْخَلاءِ وَالْمَلاءِ، وَاللَّيْلِ وَالنَّهارِ، وَالإعْلانِ وَالإسْرارِ، وَفِي السَّرَّآءِ وَالضَّرَّآءِ وَآنِسْنا بِالذِّكْرِ الْخَفِيِّ، وَاسْتَعْمِلْنا بِالْعَمَلِ الزَّكِيِّ، وَالسَّعْيِ الْمَرْضِيِّ، وَجازِنا بِالْمِيزانِ الْوَفِيِّ.

إلهي بِكَ هامَتِ الْقُلُوبُ الْوالِهَةُ، وَعَلى مَعْرِفَتِكَ جُمِعَتِ الْعُقُولُ الْمُتَبايِنَةُ، فَلا تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ إلاّ بِذِكْراكَ، وَلا تَسْكُنُ النُّفُوسُ إلاّ عِنْدَ رُؤْياكَ، أَنْتَ الْمُسَبَّحُ فِي كُلِّ مَكانٍ، وَالْمَعْبُودُ فِي كُلِّ زَمانٍ، وَالْمَوْجُودُ فِي كُلِّ أَوانٍ، وَالْمَدْعُوُّ بِكُلِّ لِسانٍ، وَالْمُعَظَّمُ فِي كُلِّ جَنانٍ، وَأَسْتَغْفِرُكَ مِنْ كُلِّ لَذَّةٍ بِغَيْرِ ذِكْرِكَ، وَمِنْ كُلِّ راحَةٍ بِغَيْرِ أُنْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ سُرُورٍ بِغَيْرِ قُرْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ شُغْلٍ بِغَيْرِ طاعَتِكَ.

إلهِي أَنْتَ قُلْتَ وَقَوْلُكَ الْحَقُّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللّٰهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ وَقُلْتَ وَقَوْلُكَ الْحَقُّ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ فَأَمَرْتَنا بِذِكْرِكَ، وَوَعَدْتَنا عَلَيْهِ أَنْ تَذْكُرَنا تَشْرِيفاً لَنا وَتَفْخِيماً وَإعْظاماً، وَها نَحْنُ ذاكِرُوكَ كَما أَمَرْتَنا، فَأَنْجِزْ لَنا مَا وَعَدْتَنا يا ذاكِرَ الذّاكِرِينَ، وَيا أَرْحَمَ الرّاحِمِينَ.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾

الأحزاب: ٤١ - ٤٢

نداء الذكر الإلهي

توطئة

المعادلة القرآنية في الذكر الإلهي

لا شك أن موضوع الذكر الإلهي يعد من الموضوعات الأساسية والجوهرية في المعرفة الدينية على مستوى جميع الرسالات السماوية، ذلك بعد أن نعرف أن الهدف الأعلى لبعث الأنبياء والمرسلين هو تذكير الناس بالله سبحانه وتعالى، ومن هنا قال القرآن عن النبي الخاتمﷺ: فذكر إنما أنت مذكر!

ولا يخفى أيضاً أن لبحث الذكر الإلهي آثاراً واسعة على المستوى العقائدي والأخلاقي والشرعي والنفسي والعقلي والسلوك العملي عند الإنسان.

على ضوء ذلك احتل هذا البحث مساحات واسعة وحقول مختلفة في كتب الأديان وتعاليم الأنبياء والخطابات السماوية عموماً.

لكن الملفت للنظر هو طريقة عرض القرآن الكريم لموضوع الذكر الإلهي، إذ يطرح القرآن هذا الموضوع من خلال معادلة دقيقة أشبه بالمعادلة الرياضية المتكونة من طرفين، وقد

جاءت هذه المعادلة القرآنية حول الذكر بصياغات متعددة ومختلفة، لكن أهم صياغة لها جاءت ضمن آيتين كريمتين هما:

قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿نَسُوا اللّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾(٢).

وبالإمكان دمج هاتين الصياغتين القرآنيتين في صياغة واحدة تؤسس المعادلة المذكورة، وهي:

(إذا ذكرتم الله فإن الله يذكركم، وإذا نسيتم الله فإن الله ينساكم).

إن هذه المعادلة القرآنية التي نسميها (معادلة الذكر والنسيان الإلهي) تضعنا في مواجهة مجموعة من الأسئلة وعلامات الاستفهام المختلفة التي تفتح لنا آفاق البحث في موضوع الذكر الإلهي وأهميته في حياة الإنسان وعلاقته بالله عز وجل بل ومصيره النهائي في مسيرة وجوده.

إن الله سبحانه يأمرنا بذكره (فاذكروني) ويترتب على ذلك ذكره لنا، ثم يؤكد أننا إذا نسيناه سوف ينسانا أيضاً!

لماذا يجب أن نذكر الله دائماً ولا ننساه أو نغفل عنه؟

وإذا ما علمنا أن الذكر يعني حضور المذكور عند الذاكر، فنسأل:

---

(١) البقرة: ٥٢.

(٢) التوبة: ٦٧.

كيف نذكر الله؟ وكيف يتحقق حضور الله في حياتنا ووجودنا؟

ثم نسأل: كيف يذكرنا الله بعد ذكرنا له سبحانه؟ وكيف نحضر عنده؟ وهل كان ناسياً أو غافلاً عنّا قبل ذلك؟! سبحانه وتعالى عمّا يصفون.

ثم لنا أن نسأل: كيف ينسانا الله ولماذا؟ وما هي حقيقة النسيان الإلهي لنا؟ بل إن القرآن يؤكد أن نسيان الله يؤدي إلى نتيجة خطيرة أخرى وهي نسيان أنفسنا! حيث يقول: ﴿**وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ**﴾[١] .. وكذلك: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**﴾[٢] فكيف تتحقق المعيشة الضيقة ولماذا يحشر يوم القيامة أعمى؟

لماذا ننسى الله ونغفل عنه بالرغم من أنه يؤكد أنه نور السمٰوات والأرض؟! وهو معنا أينما كنّا! ولماذا يؤدي هذا النسيان والغفلة إلى الهلاك وقساوة القلب وسوء العاقبة؟

ولماذا لا يكفي ذكر الله القليل، بل لا بد أن يكون كثيراً﴿**ذْكُرُوا اللّهَ ذِكْراً كَثِيراً**﴾[٣] ﴿**وَالذَّاكِرِينَ اللّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ**﴾[٤]؟

---

(١) الحشر: ١٩.

(٢) طه: ١٢٤.

(٣) الأحزاب: ٤١.

(٤) الأحزاب: ٣٥.

وفي قبال ذلك يقول سبحانه: (أنا جليس من ذكرني)، هل يدرك الإنسان فعلاً معنى أن يكون الله جليسه؟! وهل يدرك الإنسان الذاكر معنى أن الله سيذكره في الملأ الأعلى؟

وإذا كان الدين ومعرفة الله سبحانه هي فطرة الله التي فطر الناس عليها، فيا ترى كيف انحجبت هذه الفطرة وتم تغطيتها إلى درجة أن الإنسان ينسى الله وينسى فطرته التي هي أصل وجوده؟!

وما هي تلك الأسباب التي أدت بالإنسان الذي هو خليفة الله وسيد هذا الوجود إلى هذا النسيان الوجودي؟

نحاول في هذا البحث - بحوله تعالى- أن نقف على معادلة الذكر والنسيان الإلهي مستنيرين بالمنهج القرآني الذي تناول موضوع الذكر الإلهي من خلال عشرات الآيات الكريمة التي تحدثت عن حقيقة الذكر وبيان آثاره ونتائجه في حياة الإنسان الدنيوية والأخروية.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾[1].

---

(١) القمر: ١٧.

المبحث الأول

• أهمية الذكر الإلهي قرآنياً

يدور البحث في هذه المحاضرات حول نداء آخر من النداءات القرآنية، وهو ما نصطلح عليه بـ(نداء الذكر الإلهي) المستند إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[(١)].

وقبل الدخول في تفاصيل البحث لا بد أن نشير إلى أن (الذكر الإلهي) يعد من الحقائق القرآنية التي تعرض لها القرآن الكريم من خلال عشرات الآيات الكريمة التي أكدت وبينت حقيقة الذكر الإلهي والآثار المترتبة عليه سواء في الدنيا أم في الآخرة.. حيث جاءت هذه الآيات بصياغات مختلفة تعطي كل منها أثراً من آثار الذكر على الإنسان في جميع نشآت وجوده ومستويات حياته. وسوف يتضح لنا من خلال البحث أن حياة الإنسان لا يمكن أن تكتب لها السعادة الحقيقية ووصولها إلى كمالها المنشود إلا أن تكون مشرقة بذكر الله سبحانه، ومن هنا

(١) الأحزاب: ٤١-٤٢.

أمرنا الله عز وجل بالذكر الكثير كما تنص على ذلك الآية التي افتتحنا بها هذا البحث.

- **بعض آثار الذكر في القرآن**

ومن أجل أن نفتح آفاق هذا الموضوع القرآني نذكر بعض الآيات المتعلقة بالذكر الإلهي وما يترتب عليه من الآثار الوجودية والعقائدية والأخلاقية، ثم الانتقال إلى تفاصيل البحث.

١. قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**﴾[١] .

إذن تقرر هذه الآية الكريمة أن من آثار الغفلة وعدم الذكر هو أن يقيض الله للإنسان شيطّاناً يكون قريناً له!

٢. قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**﴾[٢] .

وهذه من الآيات القرآنية التي تتعرض لذكر الآثار الدنيوية والأخروية لترك الذكر الإلهي، فإن الغافل والمعرض عن ذكر الله ستكون حياته في الدنيا ضنكاً أي ضيقة، وسيحشر في الآخرة أعمى.

---

(١) الزخرف: ٣٦.

(٢) طه: ١٢٤.

٣. وقوله تعالى﴿وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾[١].

إذ نهى الله سبحانه وتعالى عن طاعة من كان قلبه غافلاً عن ذكر الله سبحانه وما يمكن فهمه من خلال المقابلة أن كل من كان قلبه عامراً يذكر الله فهو أهل للطاعة والإتباع، وكل من كان قلبه غافلاً عن ذكر الله فهو ليس كذلك، لأنه يتبع هواه ويكون أمره فرطا.

٤. قوله تعالى: ﴿وَأَقِمْ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾[٢].

حيث تؤكد هذه الآية الكريمة أن الغاية من إقامة الصلاة هي تحقق الذكر الإلهي ونلاحظ في سياق هذه الآية التي وردت خطاباً لنبي الله موسى عليه السلام، أنه يذكر على لسان موسى وهارون عليهما السلام قولهما: ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً﴾ ومن الملفت للنظر أن هناك تأكيداً واضحاً على (الذكر الكثير) ونفهم من ذلك أن المطلوب هو الذكر بوصفه كثيراً لا قليلاً، وهذا يعني أن على الإنسان المؤمن أن يذكر الله في جميع مفاصل ومستويات حياته، العقلية، والنفسية، والقلبية، والعقائدية والاجتماعية وغيرها. فتكون

---

(١) الكهف: ٢٨.

(٢) طه: ١٤.

حياته عامرة بالنور الإلهي.

٥. قوله تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ وَأَقِمْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾[1].

تشير هذه الآية الكريمة إلى أن أحد أهم آثار الصلاة على الإنسان هو أنها تنهاه عن الفحشاء والمنكر، وهو أثر إيجابي مقصود للشارع سبحانه وتعالى، لكن يبقى هناك هدف أعظم وأكبر من النهي عن الفحشاء والمنكر، وهو (ذكر الله) حيث قالت: ولذكر الله أكبر! وحيث ورد عن النبي الأكرمﷺ أن الصلاة عمود الدين، فهذا يعني أن الصلاة هي الذكر الأكبر لله تعالى، وأن أثرها الحقيقي في علاقة الإنسان بالله سبحانه هو أكبر من النهي عن الفحشاء والمنكر.

٦. قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[2].

فمن أهم آثار الذكر الإلهي على الإنسان الذاكر هو اطمئنان القلب، وهو حال من السكون والاستقرار النفسي التي تملأ القلب وتطرد عنه القلق والتردد.

---

(١) العنكبوت: ٤٥.

(٢) الرعد: ٢٨.

٧. قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنْ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُنْ مِنْ الْغَافِلِينَ﴾[١] وكذلك قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾[٢].

إذ تؤكد هذه الآيات الكريمة أن ذكر الله سبحانه غير محدد بوقت معين أو محدود، بل لا بد أن تمتلئ جميع أوقات الإنسان بالذكر الكثير.

٨. قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٣].

تقرر هذه الآية الكريمة أن أحد أسباب الفلاح والنجاح هو ذكر الله كثيراً، فالذاكر لله داخل في دائرة المفلحين.

٩. قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾[٤].

في هذه الآية الكريمة أيضاً يأمرنا الله سبحانه بأن نذكره على كل حال وفي جميع أوضاعنا البدنية، فالإنسان إما أن يكون قائماً أو قاعداً أو مضطجعاً على جنبه.

---

(١) الأعراف: ٢٠٥.

(٢) آل عمران: ٤١.

(٣) الجمعة: ١٠.

(٤) النساء: ١٠٣.

١٠. قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً﴾[١].

١١. وقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾[٢].

١٢. قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ﴾[٣].

١٣. قوله تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمْ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَان﴾[٤].

١٤. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ﴾[٥].

١٥. قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ *... ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾[٦].

---

(١) البقرة: ٢٠٠.
(٢) المنافقون: ٩.
(٣) النور: ٣٧.
(٤) المجادة: ١٩.
(٥) الحديد: ١٦.
(٦) الزمر: ٢٢-٢٣.

١٦. قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾(١).

١٧. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنْ الصَّلاَةِ﴾(٢).

١٨. قوله تعالى:﴿لأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(٣).

١٩. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(٤).

٢٠. قوله تعالى: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾(٥).

٢١. قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾(٦).

---

(١) الأحزاب: ٢١.

(٢) المائدة: ٩١.

(٣) آل عمران: ١٩٠-١٩١.

(٤) النساء: ١٤٢.

(٥) طه: ٤٢.

(٦) النجم: ٢٩.

٢٢. قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً﴾[١].

٢٣. قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[٢].

تعتبر هذه الآية الكريمة من أهم الآيات القرآنية التي تعرضت لموضوع الذكر الإلهي، حيث أنها تقرر من خلال جملة شرطية أن الإنسان متى ما ذكر الله فالله سبحانه يذكره، وسيأتي البحث المفصل فيها في اللاحق من فقرات هذا البحث بحوله تعالى.

هذه جملة من الآيات المباركة التي تحدثت عن حقيقة الذكر الإلهي وبعض نتائجه وآثاره على الإنسان ذكرناها كمقدمة للدخول في بحث نداء الذكر الإلهي.

• معنى الذكر والغفلة والنسيان

وللوقوف على حقيقة الذكر الإلهي لا بد أن يتضح لنا معنى الذكر من الجهة اللغوية والاصطلاحية، وفي هذا المجال يمكن القول:

إن الذكر يطلق أحياناً في مقابل الغفلة، فهناك إنسان ذاكر

(١) الجن: ١٧.
(٢) البقرة: ١٥٢.

ويقابله الغافل، والغفلة تعني: انتفاء العلم بالعلم، فإن الإنسان إذا لم يكن عالماً بعلمه يقال إنه غافل، أي أن الإنسان لديه علم، لكنه مشغول عنه غير ملتفت إليه فتتحقق الغفلة، ومتى ما التفت وعلم بعلمه يقال عنه: ذاكر، ويمكن فهم هذا المعنى للغفلة من قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾(١) فالقلب المشغول بالهوى لا يعلم أنه يعلم، فهو غافل.

وتارة يستعمل الذكر في مقابل النسيان، أي أن الذاكر يقابل الناسي، والمراد من النسيان هو: زوال صورة العلم عن خزانة الذهن(٢)، وبهذا يفترق النسيان عن الغفلة، إذ في حالة الغفلة يكون العلم موجوداً لكن غير ملتفت إليه، لكن في حالة النسيان ينتفي العلم أصلاً من النفس، ويمكن فهم هذا المعنى أيضاً من قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾(٣).

وأما ما هو معنى الذكر؟ فيمكن القول: هو التخلص من الغفلة والنسيان، ويمكن التعبير عن ذلك: بأن الذكر هو حضور المذكور في القلب، أو حضور المعنى عند النفس، وهذا هو الذكر الحقيقي.

---

(١) الكهف: ٢٨.
(٢) الميزان في تفسير القرآن: ج١، ص٣٤.
(٣) الكهف: ٢٤.

قال الراغب في المفردات: الذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة وهو كالحفظ إلا أن الحفظ يقال اعتباراً بإحرازه، والذكر يقال اعتباراً باستحضاره، وتارة يقال لحضور الشيء في القلب أو القول، ولذلك قيل: الذكر ذكران، ذكر بالقلب، وذكر باللسان، وكل واحد منهما ضربان: ذكر عن نسيان، وذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ[1].

والظاهر أن الأصل فيه ما هو للقلب وإنما يسمى اللفظ ذكراً اعتباراً بإفادته المعنى وإلقائه إياه في الذهن. فيكون اللفظ ذكراً بهذه العناية، أي أن الذكر حقيقة هو الحضور في القلب، وهو خاص بالمعاني والحقائق دون الألفاظ.

وعليه يكون الذكر من الأمور الباطنية والقلبية لأنه يقابل الغفلة والنسيان وهما أمران نفسيان قلبيان، لأن كليهما يحصل في النفس والقلب. كما هو معلوم. فالذكر الحقيقي هو طرد الغفلة والنسيان الباطني وحضور المذكور في قلب الذاكر ونفسه، ولما كان الذكر من الأمور الباطنية فإن ما يحصل باللسان لا أثر له إذا لم يكن مرتكزاً على الذكر القلبي.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، مادة (ذكر).

على ضوء ذلك سوف تتحقق مراتب مختلفة للذكر والغفلة والنسيان، نذكرها باختصار:

- غفلة الجوارح يقابلها ذكر الجوارح.
- غفلة القلب يقابلها ذكر القلب.
- غفلة العقل ويقابلها ذكر العقل.

فجميع مراتب وجود الإنسان لها غفلة وذكر خاص بها، إلا إذا وصل الإنسان إلى درجة العصمة فتكون جميع مراتبه الوجودية ذاكرة لله سبحانه، ويكون كل وجوده ذكراً لله سبحانه في نفسه وقلبه وعقله وبدنه ونومه ويقظته، ومن هنا يكون خليفة لله سبحانه وتجب طاعته لأنه حاضر بكل وجوده عند الله سبحانه، بتعبير آخر المعصوم عليه السلام يتربع في أعلى قمة السلسلة الطولية للذاكرين، وأسفل هذه السلسلة يكون الإنسان الغافل مائة بالمائة وهو الذي يعبر عنه القرآن: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

- **لماذا يأمرنا الله بالذكر الكثير؟**

في هذا المجال وعلى ضوء الآيات القرآنية التي ذكرناها في موضوع الذكر، يمكن أن يثار السؤال التالي:

---

(١) البقرة: ٧.

لماذا يأمرنا الله سبحانه بالذكر الدائم؟ ولماذا لا بد أن يكون هذا الذكر كثيراً لا قليلاً؟

الجواب: بعد التأمل في الآيات الكريمة يتضح أن المنشأ الحقيقي والأساسي لكل الذنوب والرذائل والخطايا هو الغفلة، وكلما اتسعت دائرة الغفلة في وجود الإنسان ازدادت بتبعها ذنوبه وسيئاته، وبالعكس كلما يكون الإنسان ذاكراً لله سبحانه وسوف تضيق دائرة الذنوب والمساوئ الأخلاقية حتى تتضاءل وتختفي تماماً بحصول الذكر الإلهي الدائم والمستمر، ولا يخفى أن هذه النتيجة للذكر الإلهي مرتبطة ارتباطاً تاماً بما تقدم في أبحاث العبادة والتوبة، إذ أن العبادة هي الاتصال والقرب من الله سبحانه، والتوبة هي الرجوع إلى الله سبحانه، وهكذا الذكر الإلهي.. فالجميع تصب في مصبّ واحد وهو أن يكون الله حاضراً في حياتنا متصلون به، راجعون إليه، ذاكرون له.. وكلما تحقق الانقطاع والابتعاد والغفلة عن الله كلما ابتعدنا عن مصدر الكمال المطلق... ومن هنا جاءت هذه النداءات الإلهية بصيغة الأمر (أعبدوا الله) (توبوا إلى الله) (اذكروا الله) وفي آية أخرى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا**﴾[1].

---

(١) آل عمران: ١٠٣.

فالاعتصام بالله ينجي الإنسان من الهلكة، كما ذكرنا ذلك في بحوث سابقة من أن الإنسان غير المعتصم بالله والبعيد عن الله يكون كالماء القليل الذي ينفعل بملاقاة النجاسة، أما الإنسان العابد لله... والراجع إلى الله.. وذاكر الله.. والمعتصم بالله.. سوف يكون متصلاً بمصدر الكمال والطهارة الحقيقية اتصالاً تكوينياً وجودياً.. فجميع النداءات الإلهية الموجهة إلى الإنسان تريد أن تسحب الإنسان إلى العالم العلوي.. عالم النور والكمال والسعادة الذي هبط منه إلى عالم الدنيا الذي يمثل عالم المادة والشهوات والملذات الفانية.. وهو العالم الذي لم نخلق للبقاء فيه لذا يكون هو عالم التكليف والابتلاء وعلى الإنسان الساعي نحو الكمال أن يخلص نفسه من هذا العالم ومتعلقاته ليرجع إلى مصدره وأصله السماوي كما قال تعالى: ﴿**إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾[1]. ومن هنا أرسل الله الرسل والأنبياء والرسالات السماوية ومنحنا العقل والقلب والضمير والفطرة السليمة التي هي أدوات يستعملها الإنسان للرجوع إلى أصله الإلهي طاهراً نقياً كاملاً.

وفي هذه النقطة تظهر ثمرة الذكر الإلهي فمن كان ذاكراً لله

---

(١) البقرة: ١٥٦.

سبحانه سيكون رجوعه لأصله سهلاً يسيراً، وأما من كان غافلاً سيكون رجوعه عسيراً وعاقبته الهلاك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنْ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(١).

إذ تؤكد هذه الآية الكريمة أن جميع أدوات الإدراك موجودة عند هؤلاء من أعين وآذان وقلوب، لكنهم غافلون!!

وقال تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ﴾(٣).

وفي هذه الآية إشارة إلى حالة النسيان، فإن نسيان الله ستكون نتيجته نسيان النفس، وهو أشد آثاراً سلبية من الغفلة، ومن الملفت للنظر أن الآية تقول: أنساهم أنفسهم! كيف ينسى الإنسان نفسه وهي حاضرة عنده بالعلم الحضوري؟ إن هذا نتيجة لنسيان الله.. فالنفس الناسية لله كأنه لا وجود لشيء فيها

---

(١) الأعراف: ١٧٩.

(٢) الأنبياء: ١.

(٣) الحشر: ١٩.

يستحق التذكر والالتفات فينسى الإنسان نفسه!!

وأما الغفلة فهي ظلمة وموت في هذا العالم.. والذكر الإلهي هو نور هذه الظلمة... وهو حياة لهذا الموت، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[1].. فالاستجابة لله وللرسول تورث الحياة.. وبدون هذه الاستجابة فنحن أموات.. وعلى الإنسان أن يستجيب لهذه الدعوة الإلهية ويعود إلى عالمه الحقيقي الذي هبط منه ولا يغرنّه عالم الدنيا الفانية. وإن الدار الآخرة لهي الحيوان. ومن هنا أكد القرآن على الذكر الكثير الذي يكون سبباً لنجاة الإنسان وخلوصه نحو الله سبحانه وتعالى مصدر الحياة والنور والكمال المطلق والسعادة الحقيقية.

---

(١) الأنفال: ٢٤.

المبحث الثاني

• الذكر من مقامات العارفين

يعتبر الذكر الإلهي من أعظم مقامات العـارفين وأهـل الله السالكين في صراط الكمال والتوحيد الحقيقي، ذلـك لأن الـذكر في عمقه وحقيقته مظهر من مظاهر الحب الإلهي.. ولا يمكـن في حالات الحب الحقيقي أن يغفل الحبيب عن محبوبه أو ينـساه لأن الحب لا يتحقق إلا بحضور المحبوب في القلب والنفس.. ومـع وجود الغفلة والنسيان ينتفي الحـب مـن أصـله، ولـذلك تعتـبر الغفلة عن المحبوب من أعظم المعاصي في نـشأة الحـب، ويكـون النسيان أشد من الغفلة سـوءاً، لأن حقيقـة الحـب مـن الناحيـة الوجودية هي حضور (مبتهَج) عند (مبـتهِج).. فالـذكر الإلهـي يكون من أعظم مقامات العارفين بسبب ارتباطه بحقيقة الحب.

• الحب حقيقة سارية في جميع الموجودات

لا شك أن المقصود من الحب في هـذا البحـث هـو الحـب الوجودي الذي يعدّ كـمالاً حقيقيـاً للـنفس في حقيقـة ارتباطهـا

بخالقها عز وجل.. وليس المقصود الحالة العاطفية التي تحدث في نفوسنا تجاه الآخرين والتي نسميها حباً.. لأن الحب تعلق خاص أو انجذاب مخصوص شعوري بين الإنسان وبين كماله.. ومن هنا نرى أن الإنسان يحب أفعاله لأنه يشعر أنها كمال له.. واستناداً إلى ذلك نستنتج أن الله سبحانه أهل للحب بأي جهة فرضت، فإنه تعالى في نفسه موجود ذو كمال غير متناه وأي كمال فرض غيره فهو متناه، والمتناهي متعلق الوجود بغير المتناهي وهذا حبّ ذاتي مستحيل الارتفاع، وهو تعالى خالق لنا منعم علينا بنعم غير متناهية فنحن نحبه، وحيث أن الحب رابطة وجودية فيكون كل شيء محباً لذاته وآثار وجوده، وبذلك يظهر أن الله سبحانه يحب خلقه لحبّ ذاته ويحب خلقه لقبولهم إنعامه عليهم، ويحب خلقه لقبولهم هدايته. وما دام الحب انجذاباً شعورياً بين الشيء وكماله الخاص به يثبت أن الحب حقيقة سارية في جميع الموجودات، لأن جميع الموجودات الممكنة تطلب بلسان حالها كلّ كمال تحتاجه في مسيرة وجودها التكوينية فهي محبة لخالقها وموجدها ومن هنا تكون جميع الموجودات عابدة مسبّحة تقدس الله سبحانه[1].

---

(١) ينظر الميزان في تفسير القرآن: ج١، ص٤٠٩.

بناء على ذلك فإن الأولياء الكمّل والسالكين صراط المعرفة الإلهية الحقة لا يمكن أن نتصور تحقق الغفلة والنسيان لديهم لأنهم سائرون في طريق المحبة الإلهية ومن المتعذر أن يغفلوا عن محبوبهم طرفة عين فهم ذاكرون لله سبحانه والله ذاكرهم دائماً وأبداً.

● **قصة طرق باب الحبيب**

ويطيب لي في هذا المقام أن أنقل هذه الحكاية اللطيفة التي يذكرها بعض علماء الأخلاق لتصوير العلاقة الحقيقية بين المحبّ ومحبوبه.

يقال أن حبيباً ذهب إلى بيت حبيبه.. وكانت تربطهما علاقة حبّ عظيمة، وحينما وصل إلى بيته طرق باب بيت الحبيب، فجاءه النداء: من الطارق؟ قال: أنا فلان حبيبك! فلم يأته جواب ولم تفتح له الباب! فكرر ذلك مرة أخرى، ولا جواب! وعندما طرق الباب ثالثة، جاءه النداء أيضاً: من الطارق؟ قال: (أنت) الطارق!!! ففتح له باب البيت.

والمغزى من هذه الحكاية أنك ما دمت تحب أحداً حباً حقيقياً فعليك أن لا ترى لنفسك وجوداً في قباله وتقول: أنا! فتنتفي الاثنينية بينكما، لأن المساحة التي ترى فيها وجودك

و(الأنا) الخاصة بك تعني أنك غافل عـن المحبـوب بمقـدارها! وغير ملتفت إليه، فلا يجتمع الحـب مـع الغفلـة والنـسيان، بـل الحب الحقيقي يلازم الذكر دائماً ولا يمكن أن ينفك عنـه، ومـن هنا يؤكد القرآن على هذه النتيجة في قانون الذكر الإلهي في قولـه تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ...﴾[1].

إذ لا يمكن للإنسان أن يعيش الحياة الطيبة الـسعيدة التـي فيها كماله من دون ذكر الله.. بل تكون حياته حينئذٍ ضـيقة قلقـة يحكمها الخوف والشعور باللا اسـتقرار.. وفي هـذا المجـال ورد عن النبي الأكرمصلى الله عليه وآله أنه قال: مـن أطـاع الله فقـد ذكـر الله وإن قلّت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن، ومن عـصى الله فقـد نـسي الله وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن[2].

حيث يشير هذا الحديث المبارك إلى ضابطة مهمة وهـي أن الذكر يلازم الطاعة، والنسيان يلازم المعـصية، فمنـشأ المعـاصي والسيئات هو الغفلة والنسيان، وأما الذكر فهـو أرض الطيبـات والأعمال الصالحة والحسنات، وحيث أننا ذكرنا بأن معنى الذكر هو حضور المذكور في القلب والـنفس فـيمكن حينئـذٍ وصـف

---

(١) طه: ١٢٤.

(٢) وسائل الشيعة: ج١٥، ص٢٥٨.

الذكر بالشدة والضعف فهو ذو مراتب مختلفة، وكلما ازدادت ساحة الحضور الإلهي في وجود الإنسان قلّت الغفلة والنسيان ومعه تقل المعاصي والسيئات وتكثر الحسنات والأعمال الصالحة، وكذلك إذا قلت مساحة الذكر الإلهي ازدادت في قبالها مساحة الغفلة والنسيان وكانت هناك أرض خصبة للمعاصي والسيئات والأعمال الطالحة. وقلنا أن مراتب الذكر تختلف سعة وضيقاً من إنسان إلى آخر، سوى الإنسان المعصوم فلا يتصور منه حتى التفكير في المعصية وذلك لانتفاء حيثية المعصية في وجوده وهي الغفلة والنسيان فلا يكون إلا أرضاً خصبة لكل الحسنات والأعمال الصالحة.

والمهم أن لا تنطفئ ساحة النور الإلهي في نفس الإنسان ووجوده لأن ذلك يعني أن يكون وجوده ظلمانياً لا تصدر منه إلا السيئات والذنوب بسبب بعده واعراضه عن الذكر الإلهي.

وهذا هو النسيان المنهي عنه في القرآن.. فإننا ومع شديد الأسف نذكر كل شيء وننسى الله سبحانه.. مع أن كل هذا العالم إذا نسبته إلى الله فهو لا شيء والله فقط هو الحقيقة المطلقة.. لا نذكره!! مع أنه نور السمٰوات والأرض! وهو معكم أين ما كنتم!!

• الواجبات الشرعية في ضوء الذكر الإلهي

على ضوء حقيقة الذكر الإلهي وتأثيره على حياة الإنسان يمكن أن نعطي معنى معمقاً للواجبات والتكاليف الشرعية التي أوجبها الله سبحانه على الإنسان المكلف.. ومن المعلوم أن باب الطاعات الإلهية واسع جداً إلا أن الشارع المقدس أوجب بعض الطاعات بنحو الإلزام وأبقى الباب مفتوحاً للمكلف في الطاعات الأخرى التي نسميها المستحبات.

وقد ذكر علماء الشريعة أن الطاعات الواجبة هي تلك الأعمال التي تحتوي على مصلحة شديدة تصل إلى حدّ إلزام المكلف بالإتيان بالفعل وذلك كالصلاة اليومية والصوم والحج للمستطيع وغيرها. ولكن لو سألنا ما هي هذه المصلحة الشديدة التي ينشأ منها الواجب الشرعي؟ فإننا لا نجد جواباً في علم أصول الفقه حول هذا التساؤل، لأن هذا الجواب يتكفله علم آخر من علوم المعرفة الدينية، وفي هذا المجال يمكن أن نطرح جواباً لذلك في البحث القرآني وخصوصاً في الموضوع الذي بين أيدينا وهو الذكر الإلهي وأثره في حياة الإنسان، فنقول:

إن الإنسان الذي يعيش في هذه الدنيا التي تمثل نشأة المادة وعالم الشهوات والملذات الفانية والرغبات الناقصة لو أعطيت

له الحرية والاختيار في الإتيان بالطاعات والعبادات والأعمال الصالحة مع نقصه في إدراكاته وجهله بكمالاته الحقيقية سوف لا يكون ذاكراً لله سبحانه، فيوجب الله عليه الإتيان ببعض الأعمال إلزاماً ولو بمقدار قليل لكي لا تنطفئ جذوة الذكر الإلهي في حياته ويكون من الذين ختم الله على وسمعهم وأبصارهم.. ولولا تشريع الواجبات الشرعية وخصوصاً في باب العبادات لكان الإنسان من الغارقين في ظلمات عالم المادة ويكون وجوده ساحة للذنوب والمعاصي والسيئات بسبب انقطاعه عن عالم النور والكمال الإلهي.

فالله سبحانه لا يسمح بترك الطاعات الواجبة لكي لا تحصل مساحة كبيرة من الغفلة والنسيان في الوجود الإنساني، فيوجب على الإنسان بعض العبادات اليومية كالصلاة المفروضة، وبعض العبادات السنوية كوجوب صوم شهر رمضان من كل سنة.. ووجوب حج بيته الحرام إذا تحققت الاستطاعة وهكذا.. وبالتالي يكون الله سبحانه حاضراً عند الإنسان في أوقات العبادة الواجبة، والخلاصة أن الله عز وجل يريد للإنسان - بلطفه وكرمه ورحمته- الخير والكمال بحسب سعته الوجودية التي يملأها ذكر الله تعالى وإلزامه بنوع من

العبادة والتكليف لكي يبقى متصلاً بمصدر الكمال والغنى المطلق، وبذلك تكون التكاليف الشرعية الواجبة من أبرز مصاديق الذكر الإلهي المطلوب.

● **وقفة مع قوله تعالى: (فاذكروني أذكركم)**

تجدر الإشارة أولاً إلى أن قوله تعالى: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾[1] يعتبر من غرر الآيات الكريمة التي تعرضت لموضوع الذكر الإلهي.. وفيها من اللفتات القرآنية الرائعة والمضامين الإلهية العالية التي تضع الإنسان الذاكر لله في عالم آخر يملؤه النور.. وتجعل من حياته بجميع مستوياتها عبارة عن أرض خضراء مورقة بالأعمال الصالحة التي يحيطها الحضور السماوي والرحمة الإلهية من خلال التصور الصحيح للعلاقة بين الذاكر والمذكور والتي نفهمها من خلال هذه الصياغة القرآنية العظيمة للجملة الشرطية التي تتحدث عن موضوع الذكر ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾، وعند التأمل فيها تظهر لنا مجموعة من الأسئلة والإثارات التي تستحق التوقف والتي تنقلنا الإجابة عنها إلى عمق آخر في موضوع الذكر الإلهي وأثره الكبير على وجود الإنسان وحياته في هذا العالم.

---

(١) البقرة: ١٥٢.

السؤال الأول: إننا قلنا فيما سبق من الأبحاث بأن معنى الذكر: حضور المذكور في القلب والنفس، ومن المعلوم أن قلب الإنسان مهما تصورناه سيبقى محدوداً لا محالة، والله سبحانه غير محدود، فكيف يحضر اللا محدود (الله) في المحدود (القلب أو النفس)؟ وكيف يتوجه الأمر الإلهي عندما يقول: اذكروني؟

السؤال الثاني: ما هو المقصود بقوله تعالى: **أَذْكُرْكُمْ**؟ كيف يذكرنا الله؟ وهل ينسانا الله لكي يذكرنا عندما نذكره؟!

وعلى ضوء هذين السؤالين اختلفت كلمات العلماء والمفسرين في توضيح المراد من هذه الآية الكريمة، وسوف نتعرض لجواب السؤالين في ما يلي من فقرات هذا البحث.

لكن من الممكن القول بشكل عام أن المراد بالذكر المطلوب من الإنسان هو التوجه والالتفات الفعلي قولاً وقلباً وعملاً، أي يكون الإنسان ذاكراً لله في أقواله وأعماله وقلبه.. ويكون الله حاضراً عند الإنسان في جميع هذه المستويات.. أي يكون قلبه متيماً بحب الله.. ويكون لسانه لهجاً بذكر الله.. وتكون جوارحه وبدنه في خدمة الله.. وعقله ممتلئاً بنور الله.. ممتثلاً لأوامر الله.. منزجراً عن نواهي الله.. مستمسكاً بالعروة الإلهية الوثقى.. معتصماً بحبل الله.. ساعياً لما فيه السعادة

والكمال في الدنيا والآخرة.. هذا هو معنى الذكر الإلهي الذي ينبسط على جميع مفاصل حياة الإنسان.. ومع وصول الإنسان إلى هذا المستوى من العبادة والاتصال بالله سوف يعرف ماهية فقره وفاقته لله في وجوده، ويلتفت لمحدوديته أمام المطلق جلّ وعلا.

يقول السيد عبد الأعلى السبزواري قدس سره في هذا المجال:

الالتفات إليه تعالى يتحقق بتذكر نعمه تعالى، وإدمان الشكر عليها، والطاعة والعبادة له، وإتيان ما اختاره الله تعالى، مما فيه السعادة في الدارين، فإن الالتفات إليه عز وجل كذلك هو مبدأ العبودية المحضة المنتهية إلى الكمال المطلق، لما ثبت في الفلسفة العملية من أن آخر مقام الفناء في مرضاته تعالى، أول مقام البقاء به عز وجل.

وذلك لأن أنس النفس الكامل بالذات والكمال المطلق، والخير المحض العام، والفيض الأقدس التام، يوجب ترقي النفس وتعاليها عن حضيض البهيمية حينئذٍ إلى أوج الكمالات الحقيقية، وكلما ازداد الأنس ازداد الارتقاء، وأساس هذا الأنس يدور مدار الالتفات الفعلي إليه عز وجل، كما يريده تعالى، وهو المعبر عنه بـ (الذكر) في الكتاب والسنة الشريفة، وبعبارات مختلفة أخرى، كالتوجه، والتقرب، والتولية، وغيرها.

والمناط كله أمران:

الأول: الالتفات الفعلي إلى الله تبارك وتعالى، المعبّر عنه في الفقه بـ(القربة)، كما يعبر عنه علماء الأخلاق بـ(الحضور والتوجه) ونحو ذلك.

الثاني: كون ما يذكر به الله عز وجل مأذوناً فيه من قبله تعالى، فقد ورد الأذن في الشريعة المقدسة بشرائطه المعينة، التي لا بد من مراعاتها، فكل ما يكون مرضياً لله تعالى، ويؤتى به لوجهه عز وجل، فهو ذكر الله تعالى، سواء أكان من العقائد أم الأخلاق الحسنة، أم العبادات والمعاملات، أم غير ذلك، فإن ذكره تعالى -كرحمته- وسع كل شيء إذا لوحظ فيه التوجه إليه، وقد جعله تعالى بهذه التوسعة تسهيلاً لوصول عباده إليه عز وجل، وما ورد في الفلسفة العملية من: (أن الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق) فيه إشارة إلى ما ذكرناه، فكما لا حدّ للمذكور، كذلك لا حدّ لمراتب الذكر.

فإن الذكر اللفظي، كالتسبيح والتحميد والتهليل والشكر لنعمائه، والذكر العملي هو العبادة والطاعة والأفعال المرضية له تعالى، كعيادة المرضى وتشييع الموتى والسعي في قضاء حوائج الأخوان. والذكر القلبي هو التوجه والخلوص والتقرب إليه تعالى.

وكلّما ازدادت عبودية العبد لربّه ازداد مقام توجهه إليه، ولذا ورد عن نبينا الأعظمﷺ: (لي مع الله حالات لا يسعني فيها ملك مقرب ولا نبي مرسل) وفيه إشارة إلى بعض توجهاته الخاصة إلى مقام ربّه[١].

● **بيان الأقوال في معنى (فاذكروني أذكركم)**

ذكرنا أن المفسرين اختلفوا في تحديد المقصود من هذه الآية المباركة على ضوء السؤالين اللذين ذكرناهما في مستهل البحث، وخصوصاً السؤال الأول الذي يقول بأن الله سبحانه وتعالى لا محدود فكيف نذكره ويحضر في قلوبنا المحدودة؟ وفيما يلي نذكر بعض ما قاله مفسرو العامة في هذا الموضوع ثم ننتقل إلى بيان المعنى المختار والذي ينسجم مع ما ذكرناه من الحضور الإلهي في حياة الإنسان.. والمهم في هذه الأقوال جميعاً أنهم يحملون (اذكروني أذكركم) على المجاز أو التقدير وينفون أن يكون الذكر هنا مراد حقيقة وهو الحضور المتعلق بالله والإنسان، فأنهم قد تعذر عليهم تصور حضور الله في حياة الإنسان وحضور الإنسان عند الله، هذان الحضوران المستفادان من قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ الذي يعطي معنى: (أحضروني في

---

(١) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ج٢، ص١٩٢-١٩٣.

حياتكم.. تحضرون عندي)!! ولذلك حملوا ذكر الإنسان لله وذكر الله للإنسان على معاني أخرى غير المعنى الظاهر من هذا المقطع القرآني.

● ما قاله الآلوسي

قال صاحب تفسير روح المعاني: ﴿**فَاذْكُرُونِي**﴾بالطاعة قلباً وقالباً، فيعم الذكر باللسان والقلب والجوارح، فالأول الحمد والتسبيح والتحميد وقراءة كتاب الله تعالى، والثاني: الفكر في الدلائل الدالة على التكاليف والوعد والوعيد وفي الصفات الإلهية والأسرار الربانية.

والثالث: استغراق الجوارح في الأعمال المأمور بها خالية عن الأعمال المنهي عنها. ثم يضيف: وقال أهل الحقيقة: حقيقة ذكر الله تعالى أن ينسى كل شيء سواه.

(أذكركم) أي أجازكم بالثواب، وعبر عن ذلك بالذكر للمشاكلة ولأنه نتيجته ومنشؤه[1].

من الواضح أن الآلوسي يفسر (اذكروني) بمعنى الطاعة، أي: أطيعوني، ويفسر ﴿**أَذْكُرْكُمْ**﴾بمعنى أجازيكم بالثواب

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين السيد محمود الآلوسي، ج٢، ص٢٣-٢٤.

ويؤكد أن القرآن قال: (أذكركم)، لمجرد المشاكلة مع قوله: (اذكروني) وليس المقصود الذكر الحقيقي وهو الحضور عند الله سبحانه.

• ما قاله الفخر الرازي

ذكر الفخر الرازي في تفسيره الكبير المعروف بـ(مفاتيح الغيب) أن الله سبحانه كلفنا في هذه الآية بالذكر، وهو قد يكون باللسان، وقد يكون بالقلب، وقد يكون بالجوارح.. ثم يقول: فصار الأمر بقوله (اذكروني) متضمناً جميع الطاعات، أما قوله: (أذكركم)، فلا بد من حمله على ما يليق بالموضوع، والذي له تعلق بذلك الثواب والمدح، وإظهار الرضا والإكرام، وإيجاب المنزلة، وكل ذلك داخل تحت قوله: ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾، ثم للناس في هذه الآية عبارات:

الأولى: اذكروني بطاعتي أذكركم برحمتي.

الثانية: اذكروني بالإجابة والإحسان.

الثالثة: اذكروني بالثناء والطاعة أذكركم بالثناء والنعمة.

الرابعة: اذكروني في الدنيا أذكركم في الآخرة.

الخامسة: اذكروني في الخلوات أذكركم في الفلوات.

السادسة: اذكروني في الرخاء أذكركم في البلاء.

السابعة: اذكروني بطاعتي أذكركم بمعونتي.

الثامنة: اذكروني بمجاهدتي أذكركم بهدايتي.

التاسعة: اذكروني بالصدق والإخلاص أذكركم بالخلاص.

العاشرة: اذكروني بالربوبية في الفاتحة أذكركم بالرحمة والعبودية في الخاتمة[1].

فمن الواضح من كلام الرازي هنا أنه لا يحمل الذكر على معنى الحضور بل يعطيه معان أخرى، كالطاعة والثواب وغيرهما.

● **ما قاله الطاهر بن عاشور**

ذكر صاحب تفسير التحرير والتنوير في تفسيره للآية المذكورة ما نصّه:

والذكر في قوله: ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ يجيء على المعنيين، ولا بد من تقدير في قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ لأن الذكر لا يتعلق بذات الله تعالى، فالتقدير اذكروا عظمتي وصفاتي وثنائي وما يترتب عليها من الأمر والنهي، أو اذكروا نعمتي ومحامدي، وهو تقدير من دلالة الاقتضاء، وأما قوله: ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ فهو مجاز، أي أعاملكم معاملة من ليس بمغفول عنه بزيادة النعم والنصر والعناية في الدنيا، وبالثواب ورفع الدرجات في الآخرة، أو أخلق ما يفهم منه

(١) تفسير الفخر الرازي: ج٤، ص١٤٩.

الناس في الملأ الأعلى وفي الأرض فضلكم والرضا عنكم... لأن الذكر بمعنييه الحقيقيين مستحيل على الله تعالى[1].

يظهر من جميع ما تقدم أنهم لا يحملون الذكر على معناه الحقيقي الظاهر بالرغم من الآية الكريمة تقول: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾! أي أن الذكر متعلق بياء المتكلم وهو الله سبحانه وتعالى.. وكذلك قوله تعالى: ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾.. فإنه متعلق بنا مباشرة.. وإذا كان الذكر بمعنى حضور المذكور عند الذاكر فلا بد أن نفهم ذلك من الآية الكريمة سواء في ذكرنا لله تعالى، أم في ذكر الله لنا. وهذا ما نوضحه ونؤكد عليه في هذا المقام من البحث.. وقد تعرض العلامة الطباطبائي قدس سره في تفسير الميزان لبيان هذه الحقيقة التي سوف تنقلنا إلى التفسير الصحيح لقوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾.

● **ما قاله العلامة الطباطبائي**

انفرد العلامة الطباطبائي قدس سره بذكره معنى آخر للذكر الإلهي في ذيل تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾.. وفيما يلي نصّ ما قاله قدس سره نذكره ثم نشرع ببيانه بشكل مفصل.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ج٢، ص٥٠.

قال: ولو كان لقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾- وهو فعل متعلق بياء المتكلم- حقيقة من دون تجوز أفاد ذلك أن للإنسان سنخاً آخر من العلم غير هذا العلم المعهود عندنا الذي هو حصول صورة المعلوم ومفهومه عند العالم، إذ كلما فرض من هذا القبيل فهو تحديد وتوصيف للمعلوم من العالم، وقد تقدست ساحته سبحانه عن توصيف الواصفين، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾وقال: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾(١).

• الذكر هو الحضور الإلهي في حياة الإنسان

توضيح ذلك من خلال عدة نقاط:

أولاً: إن قوله: (اذكروني) فعل أمر متعلق بياء المتكلم، والمتكلم هو الله عز وجل، فلا بد أن يكون الذكر متعلقاً بالله سبحانه حقيقة.

ثانياً: أن الذكر معناه حضور المذكور في قلب ونفس الذاكر، فلو حملنا الذكر على معناه الحقيقي لكان المقصود أن الله سبحانه يكون له حضور في قلب الذاكر.

ثالثاً: بناءً على ذلك لا بد أن يكون هناك نوع آخر من

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج١، ص٣٣٦.

العلم بالله عند الإنسان غير العلم الحصولي المعروف عندنا هو الذي يتحقق معه الذكر الإلهي الحقيقي المطلوب في قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾، وذلك لأن العلم الحصولي والمفاهيم الذهنية التي تتكون منها علومنا كلها توصيفات محدودة نحن نصنعها في أذهاننا فهي مردودة إلينا لا محالة، وحاشا لله –تقدست أسماؤه– أن تحيط به تصوراتنا القاصرة المحدودة.. وجلّ سبحانه عن توصيف الواصفين.

من هنا ينبثق السؤال التالي:

إذا كان الله سبحانه يأمرنا بذكره حقيقة مع علمه بصور علومنا الحصولية ومفاهيمنا الذهنية عن الإحاطة بذكره وحضوره الحقيقي في نفوسنا، فما هي حقيقة الذكر المطلوب حينئذ؟

يجيب السيد الطباطبائي قدس سره عن ذلك بأن هذا الطلب الإلهي بالذكر يلزم منه أن يكون لدى الإنسان سنخ آخر من العلم غير هذا العلم والإدراك المعهود بيننا، وهذا العلم الآخر هو من نوع العلوم الباطنية والإدراكات العظيمة التي يحصل عليها الإنسان من خلال المعرفة الإلهية.. وبهذا العلم يتحقق الذكر الإلهي، ويؤكد أن عباد الله المخلصين هم الذين يمتلكون

هذا النوع من العلم، ولذلك قال الله في القرآن: ﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾[1].

حيث إن عباد الله المخلصين هم الذين استخلصهم الله لنفسه، فيكون وجودهم إلهياً مائة بالمائة ولا يوجد في قلوبهم ونفوسهم إلا الله سبحانه وتجليات أسمائه الحسنى وصفاته العليا.. أي يكون وجودهم طاهراً نقياً نورانياً، وبذلك يستطيعون أن يسبّحون الله ويصفونه ويكون حاضراً في قلوبهم.. فهم يذكرون الله والله ذاكرهم حقيقة من خلال امتلاكهم لهذا النوع من العلم الخاص الذي لا يمتلكه غيرهم من الناس.

من هنا نجد العلامة الطباطبائي قدس سره يؤكد ذلك المعنى في تفسيره لقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ حيث يقول: للآيتين باستقلالهما معنى أوسع وأدق وهو رجوع ضمير (يصفون) إلى الناس، والوصف مطلق يشمل كل ما يصفه به واصف، والاستثناء متصل، والمعنى: هو منزه عن كل ما يصفه الواصفون، إلا عباد الله المخلصين.

وذلك أنهم إنما يصفونه بمفاهيم محدودة عندهم وهو سبحانه غير محدود، لا يحيط به حدّ ولا يدركه نعت، فكل ما

(١) الصافات: ١٥٩-١٦٠.

وصف به فهو أجلّ منه، وكل ما توهم أنه هو فهو غيره، لكن لـه سبحانه عباد أخلصهم لنفسه وخصّهم بنفسه، لا يـشاركه فـيهم أحد غيره، فعّرفهم نفسه وأنساهم غيره، يعرفونه ويعرفون غيره به، فإذا وصفوه في نفوسهم وصفوه بما يليق بساحة كبريائه، وإذا وصفوه بألسنتهم - والألفاظ قاصرة والمعاني محـدودة- اعترفـوا بقصور البيان وأقرّوا بكلال اللسان، كـما قـال النبـيﷺ وهـو سيد المخلصين: (لا أحـصي ثنـاء عليـك أنـت كـما أثنيـت عـلى نفسك)[1].

فالمخلـصون هـم الـذين يعلمـون وحـدهم أن الألفـاظ والمعـاني والمفـاهيم لا يمكنهـا الإحاطـة بـالله الغنـي المطلـق اللامحدود، ولذلك فهم وحدهم الذين يـسبحّونه حـقّ تـسبيحه وينزهونه كذلك.. ويؤكد ذلك أيضاً ما ذكره ابن سينا في كتـاب الإشارات والتنبيهات في بحث مقامات العارفين حيـث يقـول: واعلم أن العبارة عن هـذه الـدرجات غـير ممكنـة، لأن العبـارة موضوعة للمعاني التي يتصورها أهل اللغات، ثم يحفظونها، ثـم يتذكرونها، ثم يتفاهمونها تعليماً وتعلماً، أما التي لا يصل إليهـا إلا غائب عن ذاته فضلاً عن قوى بدنه، فليس يمكن أن يوضـع لهـا

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج١٧، ص١٧٤.

ألفاظ، فضلاً عن أن يعبّر عنها بعبارة، وكما أن المعقولات لا تدرك بالأوهام، والموهومات لا تدرك بالخيالات، والمتخيلات لا تدرك بالحواس، كذلك ما من شأنه أن يعاين بـ(عين اليقين) فلا يمكن أن يدرك بـ(علم اليقين) فالواجب على من يريد ذلك أن يجتهد في الوصول إليه بالعيان، دون أن يطلبه بالبرهان[1].

ومن المشاهد التوحيدية الرائعة التي ينقلها القرآن الكريم عن المخلصين من عبادة الله هو ما ذكره القرآن في وصف الحال الذي مرّ به نبي الله يوسف عليه السلام عندما راودته امرأة العزيز عن نفسه، حيث يقول: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[2]، فقد توسلت امرأة العزيز بالأسباب بتغليق الأبواب والمراودة وأمرها له بقولها: هيت لك! وأما يوسف فقد قابلها بقوله: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾! فلم يجبها بتهديد، ولم يقل إني أخاف العزيز أو لا أخونه، أو إني من بني النبوة والطهارة أو أن عفتي أو عصمتي تمنعني من الفحشاء، ولم يقل إني أرجو ثواب الله أو أخاف عذابه إلى غير ذلك، ولو كان قلبه متعلقاً بشيء من

---

(١) الإشارات والتنبيهات، ج٣، ص٤٢١.

(٢) يوسف: ٢٣.

الأسباب الظاهرة لذكره وبدأ به عند مفاجأة الشدة ونزول الاضطرار على ما هو مقتضى طبع الإنسان.

بل استمسك بعروة التوحيد وأجاب بالعياذ بالله فحسب ولم يكن في قلبه أحد سوى ربّه ولا تعدى بصره إياه إلى غيره، فهذا هو التوحيد الخالص الذي هدته إليه المحبة الإلهية وأولهه في ربّه فأنساه الأسباب كلها حتى أنساه نفسه فلم يقل: إني أعوذ منك بالله! أو ما يؤدي معناه، وإنما قال ﴿مَعَاذَ اللهِ﴾[1].

واستناداً إلى جميع ما تقدم يتضح أن حقيقة ذكر الإنسان لله هي أن يكون الله حاضراً في قلبه ونفسه وعقله وروحه وجميع مستويات وجوده، وهذا الحضور الإلهي في وجود الإنسان هو الذي يجعل الإنسان طاهراً نورانياً وهو الذي يعطيه العصمة من السيئات والذنوب والمعاصي، فيكون معنى (اذكروني) أي لا بد أن أكون حاضراً في وجودكم دائماً بالمعنى الذي ينفي عن الله سبحانه شائبة النقص والمحدودية كما يقتضي غناه المطلق وكماله اللامتناهي، بعبارة أخرى أن هذا النوع من العلم هو علم حضوري في قلب الذاكر وليس علماً حصولياً في عالم المفاهيم والصور الذهنية.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج١١، ص١٢٥-١٢٦.

يقول الفيلسوف الإسلامي صدر الدين الشيرازي حول هذا الموضوع:

إن للحق تعالى معّية ثابتة مع جميع الموجودات، وظهوراً خاصاً منه في كل الهويات، ليس كمعية جوهر مع جوهر، أو جوهر مع عرض، أو عرض مع أحدهما، بل أشد من جميع المعيات حتى معية الوجود مع الماهية، فلا يكون ممازجاً ولا مواصلاً ولا مغايراً ولا مفاصلاً ولا متحداً كاتحاد موجود بموجود، ولا كاتحاد ماهية متحصلة بماهية متحصلة، بل كما قال إمام الموحدين ومقتدى العارفين، أمير المؤمنين عليه السلام: مع كل شي لا بممازجة، وغير كل شيء لا بمزايلة.

فكل موجود من الموجودات كقطرة في بحر وجوده، وذرة متواصلة في إشراق ظهوره وشعاع نوره، فإذا كان الحق بجميع صفاته الكمالية ونعوته الجمالية والجلالية متجلياً على جميع الأشياء، فلكل من الموجودات عين شاهدة لأوصاف جماله، ولسان ملكوتي مسبح مقدس لنعوت كماله، فكل ما في السمٰوات وما في الأرض يسبحه ويهلله ويمجده ويكبره بجميع ألسنة ذاتها وقواها ومشاعرها وضمائرها وأسرارها وظواهرها وأطوارها، قولاً وفعلاً وضميراً واعتقاداً[(١)].

---

(١) تفسير القرآن الكريم، صدر الدين الشيرازي، ج٧، ص١٤٥.

ثم يقول في تعداد مراتب التسبيح والذكر:

ذكر الأبدان مع أعـضائها وأجزاءهـا، وكـل واحـد منهـا مسبح وذاكر لربّه بلسان يخصه، بل كل واحد لسان لـذكر الحـق وتسبيحه بوجه، كما ذكـره صـاحب الفـصوص بقولـه: فالكـل ألسنة الحق، ناطقة بالثناء عليه، بل إن شـئت قلـت: كـل واحـد تسبيح وذكر لربه[1].

(١) تفسير القرآن الكريم، صدر الدين الشيرازي، ج٧، ص١٤٩.

المبحث الثالث

• المعصومعليه السلام ذكر تام

ثبت في البحوث السابقة أن الإنسان المخلص هو القادر على ذكر الله وتسبيحه وتنزيهه استناداً لقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾[1]، ومن المعلوم أن درجة الخلوص تساوق درجة العصمة، فكل مخلص هو معصوم، لأن المخلص لا توجد في جهات وجوده حيثية غير إلهية، ومن هنا يتحقق لديه حضور إلهي تام لانتفاء جهات الغفلة والنسيان في كل مستويات وجوده، فالمعصوم والمخلص كله ذكر، ولذلك إذا أردنا أن نتكلم مع الله أو ندعوه فلا بد أن نتعلم ذلك من المعصومعليه السلام فلننظر كيف تكلم الأنبياء والرسلعليهم السلام مع الله سبحانه من خلال الآيات الكريمة التي نقلها القرآن الكريم على ألسنتهم وكيف تكلم الأئمة المعصومونعليهم السلام في أدعيتهم التي نقلتها المصادر المعتبرة.. ونرى الكنوز العظيمة والمضامين الراقية

---

(١) الصافات: ١٥٩-١٦٠.

والصياغات السامية للدعاء.. ومن أبرز الأمثلة على ذلك الصحيفة السجادية المنقولة عن الإمام السجاد علي بن الحسين عليهما السلام .. فندعو بدعاء المعصوم ونتقرب إلى الله بدعائه أيضاً.. ونذكر الله بذكر المعصوم.. لأنه من عباد الله المخلصين.

على ضوء ذلك نفهم الرواية الواردة عن الإمام الباقر عليه السلام، حيث يقول:

(تسبيح فاطمة عليها السلام من ذكر الله الكثير الذي قال الله عز وجل: فاذكروني أذكركم)[1].

ومن الواضح أن تسبيح الزهراء المبارك له من الكيفية والخصوصية مما لا يخطر على قلب بشر.. فلو بقينا نفكر ونتأمل ملايين السنين لا نستطيع أن نصنع مثل هذا التسبيح (التكبير ٣٤ مرّة، والتحميد ٣٣ مرّة، والتسبيح ٣٣ مرّة) ولا نعرف ما هي الأسرار الإلهية والآثار الروحية لهذا التسبيح، ولذلك نحن نسبّح الله عز وجل بتسبيح الزهراء لأنها المعصومة المخلصة.. الملتفتة إلى الله عز وجل بكل وجودها بخلاف حالنا نحن الآخرين فإننا في أغلب جهاتنا غافلون غير ملتفتون لله سبحانه، وتختلف نسبة التوجه إلى الله من شخص إلى آخر حسب درجته

(١) تفسير العياشي: ج١، ص٦٨.

وقربه.. ومن الجدير بالذكر هنا أن نلتفت إلى ما قاله سيدنا الشهيد السيد محمد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ في إحدى خطب الجمعة: إني أرسلت لكم السيد محمد الصدر ليقرع أسماعكم فلم ترعوا ولم تهتدوا!! فهؤلاء الأولياء الذاكرون لله سبحانه يذكروننا بالله ويكونون رسلاً للذكرى والتذكير، قال تعالى: ﴿**يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون**﴾[1].

● **الذكر الإلهي سبيل النجاة**

من الحقائق التي ركزّ عليها القرآن الكريم هو أن يكون الذكر الإلهي في حياة الإنسان (كثيراً) وجعل ذلك سبباً للفلاح والنجاة ورضا الله سبحانه، قال تعالى ﴿**وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[2]، والذكر هنا مطلق أي اذكروا على أي حال لكي تتحقق الكثرة، بمعنى أن يوجد أو يتحقق حضور إلهي في عقولكم ونفوسكم وقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم.. فالله سبحانه ما وصف بالكثرة شيئاً إلا الذكر، وما أمر بالكثرة من شيء إلا من الذكر، قال: ﴿**وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ**﴾[3]،

---

(١) يس: ٣٠.

(٢) الأنفال: ٤٥.

(٣) الأحزاب: ٣٥.

وقال: ﴿اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾[1].. ومن الملفت للنظر أن هذا الآيات الكريمة وأشباهها لم تأت بالذكر إلا مقروناً بالاسم (الله) أي لفظ الجلالة.. وهذا الأمر الإلهي بالذكر يضعنا أمام حقيقة وهي أن الإنسان إذا تنجس بقذارات هذا العالم الدنيوي فإنه لا يطهر إلا بالذكر الكثير في هذه النشأة، حاله حال الماء القليل الذي يلاقي النجاسة فإنه لا يطهر إلا باتصاله بماء كثير طاهر لكي تزول عنه النجاسة العارضة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنْ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[2]، إذ لا شك أن الشيطان هو رمز قوى الشر في هذا العالم ولذلك يحاول دفع الإنسان إلى الغفلة والنسيان لكي تتحقق منه المعصية، لكن الذين اتقوا يتذكرون الله فتحصل لديهم حالة البصيرة ويتحقق الحضور الإلهي الطارد لوساوس الشيطان ومكائده.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[3].

---

(١) الأحزاب: ٤١.
(٢) الأعراف: ٢٠١.
(٣) آل عمران: ١٣٥.

إن الآية الكريمة السابقة كانت تحدثنا عن حالة الإنسان قبل وقوع الذنب، وعندما يتحقق الذكر يعود الإنسان المتقي إلى بصيرته، أما هذه الآية الكريمة فإنها تحدثنا عن حال الإنسان بعد وقوع الذنب منه وحصول الفاحشة.. وعندما يذكر الله سبحانه سوف يستغفر ربّه ويتوب إليه، وهذا أثر آخر من آثار الذكر الإلهي.

وعليه يتضح أن مصدر النجاة الوحيد ونيل السعادة الحقيقية والكمال المطلوب في هذا العالم هو ضرورة اتصال الإنسان بالمصدر السماوي الإلهي.. فاذكروا الله سبحانه ولا تنسوه.. لأن النسيان فرع الانقطاع.. وأعلموا أن الإنسان يعود إلى أصل سماوي وليس دنيوياً.. ولو كان أصله دنيوياً لوجد سعادته في عالم الدنيا مع أن الأمر ليس كذلك دار الدنيا هي دار الشقاء والزوال والفناء، وأن ما فيها من ملذات وشهوات إذا اكتنفت الإنسان وأحاطت به سوف يضيع ويهلك في ظلمات المادة وهذا هو الذي يعبّر عنه القرآن بحالة (النسيان).

● التذكير من أهم وظائف الأنبياء والمرسلين

على ضوء ما تقدم من حقيقة أن المعصوم عليه السلام ذكر تام بسبب التفاته الكامل إلى مقام ربّه عز وجل سوف تتضح لنا

حقيقة قرآنية أخرى وهي إن من أهم وظائف الأنبياء والمرسلين التذكير، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾[1] وقال: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾[2]، إذ أن مقام التذكير يستدعي أن يكون المذكر ذاكراً لكي يذكر غيره لأن الغافل لا ينبه الغافل، والناسي لا ينبه الناسي بالضرورة.. بل المذكر بالله لا بد أن يكون لديه حضور والتفات مطلق لكي يؤدي حق هذا المقام في المعرفة الإلهية.. وبعبارة أخرى هذا هو مقام العصمة المطلق للأنبياء والمرسلين، وكلما اقترب الإنسان من درجات العصمة العليا كلما كان مذكراً لغيره بدرجته الخاصة.. وحيث أن الذكر هو حضور المعنى في النفس والقلب فيكون المذكر وجوداً إلهياً سماوياً طاهراً نقياً نورانياً.. فيكون مذكراً بلسانه وأفعاله.. بحسب درجته. ومن هنا كان النبي الأعظمﷺ أعظم مذكر عرفه الكون والوجود ولذا كانت رسالته خاتمة ومهيمنة على جميع الكتب السماوية لأنها تمثل درجته العظيمة في القرب والذكر الإلهي.

ومن باب المثال لحالة التذكير التي يتصف بها أولياء الله المقربون انقل هذا المضمون الذي نقله لي أحد الأشخاص الذين

---

(١) الغاشية: ٢١.

(٢) الأعلى: ٩.

كانوا يعرفون الحاج العارف عبد الزهراء الگـرعاوي رضـوان الله عليه، إذ نقل لي: أنهم عندما كـانوا يتـشرفون بـالجلوس عنـد الحاج ورؤية وجهه لدقائق محدودة تحصل عنـدهم حالـة نفـسية وشحنة من التقوى تجعلهم لا يعملـون المكـروه لمـدة أسـبوع أو عشرة أيام فضلاً عن الحرام!! إن هذا في حقيقته يعود إلى ما قلناه هنا من أن الإنسان الذاكر لله سبحانه بكل وجوده يكـون مـذكراً للآخرين بوجوده حتى لو لم يتكلم.

• النبي الأكرم صلى الله عليه وآله هو ذكر بنفسه

بناءً على ما تقدم يثبت لدينا أن الرسول الأعظم' هـو ذكـر الله الأكبر.. وهو المذكر الأكبر بـالله سـبحانه وتعـالى، ومـن هنـا يتضح لنا قوله تعالى: ﴿**أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللهَ يَـا أُوْلِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً * رَسُولاً يَتْلُـو عَلَـيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِـنْ الظُّلُمَـاتِ إِلَى النُّورِ...**﴾[1].

فقد عبر القرآن عن الرسول بـ(الـذكر)، وأن هـذا الـذكر الذي هو رسول الله يخرجكم مـن الظلـمات إلى النـور.. لأنـه في نفسه ووجوده نور إلهـي.. حـضور إلهـي.. وبالتـالي هـو الـذي

---

(١) الطلاق: ١٠-١١.

يخرجنا من ظلمات نفوسنا وينجينا من مهلكات هذا العالم. وفي آية أخرى يقول: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾(١).

وهذا يعني أن الرسول الأكرمﷺ يخرج الذين آمنوا من الظلمات إلى النور بتجليه الإلهي، أي بصفته الفنائية، لأن الذي يخرج من الظلمات إلى النور حقيقة هو الله ولي الذين آمنوا.. وهذا مقام عظيم يتحدث عنه القرآن لم يتحدث بمثله عن نبي أو رسول غير حبيبه الخاتمﷺ.

وقد ورد ما يؤكد ذلك عن الإمام الصادقعليه السلام، حيث يقول: (في قوله: ألا بذكر الله تطمئن القلوب، فقال: بمحمد عليه وآله السلام تطمئن القلوب وهو ذكر الله وحجابه)(٢).

لا بد أن نشير إلى أن هذا المقام هو حقيقة قرآنية قبل أن تكون روائية، ومن الآيات التي تشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾(٣).

وبالرغم من أن هذه الآية الكريمة تحتاج إلى بحث مستقل باعتبارها أحد النداءات القرآنية الموجهة للذين آمنوا، لكننا نذكر

---

(١) البقرة: ٢٥٧.

(٢) البرهان في تفسير القرآن: ج٣، ص٢٥٤.

(٣) الأحزاب: ٥٦.

هنا ما يخص في هذا المقام، وذلك ضمن عدة نقاط:

أولاً: إنها جاءت بلفظ الجلالة، أي بالاسم (الله) دون باقي الأسماء الإلهية الأخرى، فقالت: ﴿إِنَّ اللّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ...﴾ وهو أعظم الأسماء الإلهية باعتباره الجامع لجميع الكمالات.

ثانياً: إنها جاءت بلفظ الملائكة بشكل مطلق ولم تقيده ببعض أنواع الملائكة ثم أضيف إلى (الله)، حيث: ملائكته، أي جميع ملائكة الله سبحانه تصلي على النبي.

ثالثاً: ثبت في البحث الفلسفي أن الملائكة هم وسائط الخلق والتدبير في هذا العالم، وهذا يعني أن كل عالم الوجود (الله وملائكته) يصلون على النبي صلى الله عليه وآله.

رابعاً: إن الصلاة من الله والملائكة جاءت بصيغة الفعل المضارع (يصلون) وهو يدل على استمرارية هذه الصلاة وعدم انقطاعها.

خامساً: بعد كل ذلك جاء المقطع الثاني من الآية الكريمة ليأمر المؤمنين بالصلاة على النبي ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾.

وما دمنا مأمورين بالصلاة على النبي، فحينئذٍ ينبثق السؤال التالي:

كيف نصلي عليه؟ وماذا نقول في الصلاة عليه؟

في هذا المجال ننقل ما ذكرته مصادر العامة لأنه أوكد في الاستدلال. فقد ذكر صاحب تفسير روح المعاني ما نصّه:

(أخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، والإمام أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، وابن مردويه عن كعب بن عجزة، قال: قال رجل: يا رسول الله أما السلام عليك فقد علمناه، فكيف الصلاة عليك؟ قال: قل اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد)[1].

ومن الملفت للنظر في كيفية هذه الصلاة أنك لا بد أن تقول: اللهمَّ صلِّ.. أي تطلب من الله سبحانه الصلاة على النبي الأكرم.. ولا تقول: صليت على محمد مثلاً، وليس ذلك إلا بسبب قصور مرتبة العبد، فيسأل ربّه سبحانه أن يصلي على النبي صلى الله عليه وآله، وحينئذٍ فالمصلّي حقيقة هو الله تعالى. ومن المعلوم أن البحث في الصلاة على النبي فيه جهات مختلفة فقهياً وعقائدياً وأخلاقياً وقرآنياً، وهناك بحوث موسعة عن ذلك في الفلسفة

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ج٢٢، ص٩٠.

والعرفان النظري والعملي حول حقيقة الصلاة على النبي وآثارها الوجودية باعتبار أن النبيﷺ هو الصادر الأول والواسطة في الفيض الوجودي فجميع الخلق يصلون عليه ويستمدون منه الوجود والرحمة والكمالات والخيرات والأنوار، لذلك ترى أننا في العرف المتشرعي نبتدئ الدعاء بالصلاة على النبي وآله ونختم بالصلاة عليه وآله.

ثم نقل الآلوسي عن بعض العلماء أنه: (لما أمرنا الله تعالى بالصلاة على نبيّهﷺ لم نبلغ معرفة فضلها، ولم ندرك حقيقة مراد الله تعالى فيه، فأحلنا ذلك إلى الله عز وجل، فقلنا: اللهم صلّ أنت على رسولك لأنك أعلم بما يليق به وبما أردته له)[1].

● فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون

ما دام البحث في الذكر الإلهي يجدر بنا التوقف عند قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[2].

ومن المعلوم أن الروايات المعتبرة الواردة عن أهل البيتعليهم السلام قد فسرت أهل الذكر بأهل البيت من الأئمّة المعصومينعليهم السلام، وقد وقع الخلاف بين المفسرين في تحديد المراد

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ج٢٢، ص٩٢.

(٢) الأنبياء: ٧.

من (أهل الذكر) فذهب بعضهم إلى أن مفاد الآية هو خطاب موجه للمشركين بسؤال أهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى باعتبارهم أهل الذكر، لكن بعد التأمّل في الآية الكريمة نجد أنها بصدد إعطاء قاعدة عامة تقرر أن كل إنسان جاهل بالذكر فلا بد أن يرجع إلى من عنده ذكر سواء كان هذا الذكر كتاباً سماوياً كالتوراة والإنجيل والقرآن أم كان الذكر بمعنى الذكر الإلهي بشكل عام، أي أن الذي يريد أن يذكر الله فلا بد عليه أن يسأل ذلك من أهل الذكر وهم الأشخاص غير الغافلين عن الله سبحانه وذلك لتعذر السؤال من الغافل غير الملتفت فالذاكرون هم المسؤولون خاصّة .. والغافلون هم السائلون خاصة، ولا ينافي ذلك أن يكون النبي الأكرم وأهل بيته عليهم السلام مصداقاً للآية الكريمة، بل هم صلوات الله عليهم يقفون على رأس قائمة أهل الذكر بالله تعالى.

وفي هذا المجال يذكر العلامة الطباطبائي قدس سره تفسيراً للآية الكريمة يؤيد ما ذكرناه، فيقول: وأما إذا أخذ قوله: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ في نفسه مع قطع النظر عن المورد ومن شأن القرآن ذلك – ومن المعلوم أن المورد لا يخصص بنفسه– كان القول عاماً من حيث السائل والمسؤول عنه ظاهراً، فالسائل

كل من يمكن أن يجهل شيئاً من المعارف الحقيقية والمسائل من المكلفين، والمسؤول عنه جميع المعارف والمسائل التي يمكن أن يجهلها جاهل، وأما المسؤول فإنه وإن كان بحسب المفهوم عاماً فهو بحسب المصداق خاص وهم أهل بيت النبي (عليه وعليهم السلام).

وذلك أن المراد بالذكر إن كان هو النبيﷺ كما في آية سورة الطلاق، فهم أهل الذكر، وإن كان هو القرآن كما في آية سورة الزخرف فهو ذكر للنبيﷺ لقومه - وهم قومه أو المتقين من قومه- فهم أهله وخاصته وهم المسؤولون، وقد قارنهمﷺ بالقرآن، وأمر الناس بالتمسك بهما في حديث الثقلين المتواتر، قائلاً: إنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض[1].

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج١٢، ص٢٨٥.

المبحث الرابع

• الكون كله ذاكر لله سبحانه

ذكرنا في مباحث نداء العبادة[١] أن القرآن الكريم يثبت أنواعاً من العبادة لجميع الكائنات والمخلوقات، كالسجود، والتسبيح، والصلاة، والخشوع، كما يتضح من الآيات الكريمة التالية:

قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[٢].

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ...﴾[٣].

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ...﴾[٤].

---

(١) نداء العبادة، ص١٣٥ وما بعدها.

(٢) الجمعة: ١.

(٣) الحج: ١٨.

(٤) النور: ٤١.

وقال: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾(١).

فهذه الآيات الكريمة تثبت التسبيح والسجود والصلاة والخشوع لجميع المخلوقات وهذا يدل على أن هذه المخلوقات جميعاً ذاكرة لله سبحانه وتعالى لأن هذه العبادات المذكورة كلها أنواع من الذكر الإلهي، وبهذه النظرة الإلهية يكون العالم كله، سماواته وأرضه، وما فيهن وما بينهن، في مقام الشهود والعبادة والعلم والشهادة في ذكر الله عز وجل، حتى أعضاء بدن الإنسان تكون مشمولة لهذا الذكر الكوني فهي ذاكرة عابدة لله سبحانه، ويشهد على ذلك أن هذه الأعضاء كالجلود والأيدي والأرجل والألسن ستشهد على النفوس يوم القيامة كما ينص على ذلك القرآن الكريم، وقبول شهادتها يوم القيامة يستدعي أن تكون هذه الأعضاء عالمة مدركة في عالم الدنيا لكي تقبل شهادتها يوم الحساب كما هو واضح.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٢).

---

(١) الحشر: ٢١.

(٢) النور: ٢٤.

● **شهادة أعضاء البدن وكيفية عذابها في جهنم**

بناء على ما ذكرناه في الفقرة السابقة من أن أعضاء بدن الإنسان ذاكرة لله سبحانه شأنها شأن المخلوقات الأخرى في الكون وأنها تشهد على أعمال الإنسان يوم القيامة، فقد سألني بعض الأخوة الفضلاء من الحضور هذا السؤال الذي يستحق التوقف والإجابة عنه، وحاصله:

إن أعضاء بدن الإنسان إذا كانت ذاكرة لله سبحانه وعابدة له، ولها مقام الشهادة يوم القيامة وهي غير مسؤولة عن أعمال الإنسان، فلماذا يعذبها الله عز وجل في نار جهنم عندما يكون الإنسان مستحقاً للعقاب؟ خصوصاً وأن بعض الآيات الكريمة تؤكد ذلك، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً**﴾[1].

وهذا سؤال لطيف ومهم في المعرفة الدينية، وستكون الإجابة عنه من خلال عدة نقاط:

أولاً: إن الآية الكريمة المذكورة قالت: ليذوقوا العذاب، والتذوق الوارد في القرآن الكريم غالباً ما يرد في جهة العذاب،

---

(١) النساء: ٥٦.

كما في الآية التي وردت في السؤال، وكذلك قوله تعالى: ﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً﴾[١] أي في جهنم، وفي آية أخرى: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾[٢]، وكذلك قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[٣].

والذوق أو التذوق نستطيع أن نقول في معناه أنه إدراك بالعلم الحضوري، ولتوضيح ذلك نقول: إننا تارة نعلم بالشيء بالعلم الحصولي والصورة الذهنية، فعندما يتكلم المريض مع الطبيب مثلاً عن مرضه وألمه، سوف تحصل صورة للألم في ذهن الطبيب وهذا ما نسميه بالعلم الحصولي في الاصطلاح المنطقي أو الفلسفي، وأما نفس المريض فإن نفس الألم حاضر في نفسه وليس صورة الألم فقط. ولذلك نجده يشعر بهذا الألم في حين أن الطبيب لا يشعر بذلك بالرغم من علمه بألم المريض. بعبارة أخرى علم الطبيب بالألم هو علم حصولي، أما علم المريض بالألم فهو علم حضوري، أي حضور نفس المعلوم عند العالم وليس صورته الذهنية.

---

(١) النبأ: ٢٤.

(٢) ص: ٥٧.

(٣) العنكبوت: ٥٧.

وفي المقام نقول أن التذوق هو عبارة عن إدراك بالعلم الحضوري، فعندما نقول: (كل نفس ذائقة الموت) فإن ذلك يعني حضور نفس الموت عند النفس وليس العلم بالموت أو صورة الموت الذهنية، وكذلك عندما يقول: (ليذوقوا العذاب) فإن معناه حضور نفس العذاب في النفس عند الشخص المعذَّب.. وهكذا الآيات الأخرى.

ثانياً: إذا كان التذوق هو إدراك بالعلم الحضوري سواء كان للعذاب أو الألم أو الراحة أو المرارة أو الحلاوة فإن هذه الأمور سوف تصبح جزءاً من وجود الإنسان المتذوق.. أي تسري في نفس وجوده.. ومن هنا يدرك المتذوق حقيقة الألم أو العذاب، وبذلك يكون المتذوق الحقيقي هو النفس، فالنفس هي التي تتعذب وهي التي تتألم، باعتبار أن التذوق لا بد له من إدراك وحضور وهذا يستدعي أن تكون هناك نفس عالمة مدركة لكي يحضر عندها الألم أو العذاب، وإلا إذا لم تكن هناك نفس مدركة فلا يمكننا أن نتصور التذوق أصلاً لعدم وجود محلّه أو موضوعه.

ثالثاً: إن الإشكال المذكور كان يقول إن الإنسان عندما يدخل في عذاب جهنم سوف يتعذب جلده في حين أن الجلود

ليست مسؤولة عن أعمال الإنسان ولا تستحق العقاب أصلاً!

وجواب ذلك بناء على ما تقدم: أن هذه الجلود لا تذوق العذاب وإنما الذائق الحقيقي للعذاب هو النفس، لأن النفس هي التي تدرك العذاب وليس الجلد، لكن الجلد واسطة خلقها الله سبحانه لكي يحصل العذاب عند النفس، فالجلد واسطة تكوينية لا اختيار لها ولا إدراك عنده للألم والعذاب، وإنما المتألم والمتعذب هو صاحب الجلد وليس الجلد، والجلد وجميع أعضاء البدن هي في حقيقتها مخلوقات مطيعة لله سبحانه في الدنيا والآخرة وممتثلة لإرادته التكوينية، بل إن الله سبحانه جعل هذه الأعضاء في الدنيا مطيعة للإنسان وفي الآخرة مطيعة لله فقط، لأن الأعضاء في الدنيا تأتمر بأمر النفس الإنسانية ولا تعصيها، والنفس هي المختارة في استعمال اليد أو الرجل أو اللسان سواء في المعصية أم الطاعة، نعم في الآخرة سوف تشهد هذه الأعضاء على أعمال الإنسان في الحياة الدنيا، وعندما تدخل مع الإنسان المسيء إلى جهنم فهي لا تتعذب بل تكون مطيعة لله سبحانه لكي تنقل العذاب والألم إلى أصحابها، وهم أصحاب النفوس العاصية المذنبة.

ولتقريب هذه الفكرة نضرب مثالاً بالخشبة اليابسة

الموجودة عندنا في الدنيا، إذ إننا عندما نضعها في النار سوف تحترق، فهل يمكن القول إن هذه الخشبة تتعذب بالنار؟!! ومن المعلوم أنها سوف تصبح فحماً أو رماداً، فهي في هذه النشأة مطيعة لله تكويناً إذا أن نحرقها تحترق، وإذا أردنا منها أن تكون كرسياً تكون كذلك! فهي خاضعة للإرادة الإلهية التكوينية، فكل الحالات التي تمر على الخشبة في الدنيا تكون كمالاً لها لأنها تخرج من القوة إلى الفعل في صراط وجودي خلقها الله عليه، وهكذا الحال في الآخرة فإن الجلود عند دخولها إلى جهنم لا تتعذب بل هي مطيعة لله تكويناً في نقل العذاب والألم إلى صاحبها المستحق. بل يمكن القول أنها بدخولها إلى جهنم سوف تتطهر من النجاسة والتلوث الذي لحقها بسبب معاصي الإنسان، فصاحبها يتعذب وهي تتطهر لو صحّ التعبير. إذن إشكال تعذيب الجلود والأعضاء غير وارد أساساً.

ومن الملفت للنظر أن هناك قرينة على ذلك في نفس الآية الكريمة حيث عبرت هكذا: ليذوقوا العذاب، وضمير الجماعة في (يذوقوا) يرجع إلى الكفار وليس إلى الجلود، فالذائق للعذاب هو صاحب الجلد وليس الجلد نفسه، لأن لسان حال الجلد يقول: نحن كنا مطيعين لك أيها الإنسان في عالم الدنيا والآن

شهود عليك وقد أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء! فالآن ننقل لك العذاب كما نقلنا لك الراحة والتلذذ بالمعصية في الحياة الدنيا!!

• موعظة الذكر في انجيل برنابا

هناك نصّ في إنجيل (برنابا) يتعلق ببحث الذكر الإلهي وحقيقة الغفلة وآثارها على الإنسان وفيه من الموعظة العظيمة التي تستحق التأمل.. بالرغم من أن كنائس الغرب تنفي هذا الإنجيل وتشكك في نسبته إلى النبي عيسى عليه السلام.. لكن المضامين التي يتحدث عنها في صفحاته لا يمكن أن تصدر إلا من نبي موصى إليه لعلو معانيها ومنزلتها في الوعظ الديني.

يقول يسوع: لعمر الله الذي في حضرته تقف نفسي أنه يجوز الرقاد قليلاً كل ليلة إلا أنه لا يجوز أبداً الغفلة عن الله ودينونته الرهيبة وما رقاد النفس إلا هذه الغفلة!

حينئذٍ أجاب من يكتب: يا معلم كيف يمكن لنا أن نتذكر الله على الدوام؟ إنه ليلوح لي أن هذا محال.

فقال يسوع متنهداً: إن هذا لأعظم شقاء يكابده الإنسان يا برنابا، لأن الإنسان لا يقدر هنا على الأرض أن يذكر الله خالقه على الدوام إلا الأطهار، فإنهم يذكرون الله على الدوام لأن فيهم

نور نعمة الله حتى لا يقدرون أن ينسوا الله، ولكن قولوا لي: أرأيتم الذين يشتغلون بالحجارة المستخرجة من المقالع كيف تعودوا بالتمرن المستمر أن يضربوا حتى أنهم يتكلمون وهم طول الوقت يضربون بالآلة الحديدية في الحجر دون أن ينظروا إليها ومع ذلك لا يصيبون أيديهم؟! فافعلوا إذن أنتم كذلك، ارغبوا في أن تكونوا أطهاراً إذا أحببتم أن تتغلبوا تماماً على شقاء الغفلة، ومن المؤكد أن الماء يشق أقوى الصخور بقطرة واحدة يتكرر وقوعها عليها زمناً طويلاً.

أتعلمون لماذا لم تتغلبوا على هذا الشقاء؟ لأنكم لم تدركوا أنه خطيئة، لذلك أقول لكم: إن من الخطأ أيها الإنسان أن يهبك أمير هبة فتغمض عنه عينيك وتوليه ظهرك! هكذا يخطئ الذين يغفلون عن الله لأن الإنسان ينال كل حين هبات ونعمة من الله.

ألا فقولوا لي: ألا ينعم الله عليكم كل حين؟ بلى حقاً، فإنه يجود عليكم دوماً بالنفس الذي به تحيون، الحق الحق أقول لكم: إنه يجب على قلبكم أن يقول كلما تنفس جسدكم: الحمد لله.

حينئذٍ قال يوحنا: إن ما تقوله لهو الحق كل الحق يا معلم، فعلمنا الطريق لبلوغ هذه الحالة السعيدة.

أجاب يسوع: الحق أقول لك، لا يتاح لأحد بلوغ هذه

الحال بقوى بشرية بل برحمة الله ربّنا، ومن المؤكد أنه يجب على الإنسان أن يشتهي الصالح ليهبه الله إياه، قولوا لي أتأخذون وأنتم على المائدة الأطعمة التي تأنفون من النظر إليها؟! لا البتة، كذلك أقول لكم إنكم لا تنالون ما لا تشتهون، إن الله لقادر إذا اشتهيتم الطهارة أن يجعلكم طاهرين في أقل من طرفة عين ولكن إلهنا يريد أن ننتظر ونطلب لكي يشعر الإنسان بالهبة والواهب[1].

● **بيان المراد من قوله تعالى (أذكركم)**

قلنا في سبق من الأبحاث أن الآية الكريمة ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾ هي جملة شرطية متكونة من مقطعين، الأول: اذكروني.. وقد تقدم بيان المراد من ذكرنا لله سبحانه، الثاني: أذكركم، وهو جواب الشرط الذي يتضمن موضوع ذكر الله لنا، فهناك مقدمة لا بد أن تتحقق لكي يذكرنا الله، وهي ذكرنا له سبحانه، فالإنسان الذي يذكر الله سبحانه سوف يذكره الله.

ومن الواضح أن ذكر الله سبحانه للإنسان في ضوء هذه الآية الكريمة بحاجة إلى بيان وتوضيح، إذ أن الذكر يقابل النسيان الغفلة، ومن هنا يطرح التساؤل التالي: هل أن الله سبحانه ينسانا أو يغفل عنّا لكي يتذكرنا عندما نذكره؟!

---

(١) إنجيل برنابا: ص١٦٤.

إن هذا السؤال سوف يضعنا أمام إحدى الحقائق القرآنية الأخرى في باب الذكر الإلهي.

وفي هذا المجال أيضاً وقع الخلاف بين المفسرين في هذا المقطع من الآية الكريمة، وقد ذكرنا في الأبحاث السابقة بعض تلك الأقوال عن مفسري العامة عند البحث عن قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ .. وفي هذا المقام سوف نذكر بعض الأقوال عن مفسري مدرسة أهل البيت عليهم السلام ثم نعرج إلى بيان المراد الصحيح من قوله: ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾.

قال الطبرسي في مجمع البيان: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، قيل: معناه اذكروني بطاعتي أذكركم برحمتي - عن سعيد بن جبير- بيان قوله سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١). وقيل: اذكروني بطاعتي أذكركم بمعونتي - عن ابن عباس- وبيانه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (٢). وقيل: اذكروني بالشكر أذكركم بالزيادة - عن ابن كيسان- وبيانه لقوله: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾(٣). وقيل: اذكروني على

---

(١) آل عمران: ١٣٢.

(٢) العنكبوت: ٦٩.

(٣) إبراهيم: ٧.

ظهر الأرض أذكركم في بطنها، وقد جاء في الدعاء: اذكروني عند البلاء إذا نسيني الناسون من الورى. وقيل: اذكروني في الدنيا أذكركم في العقبى، وقيل: اذكروني في النعمة والرخاء أذكركم في الشدة والبلاء، وبيانه قوله سبحانه: ﴿فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1]. وفي الخبر: تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة. وقيل: اذكروني بالدعاء أذكركم بالإجابة، بيانه قوله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[2][3].

ومن اللطيف أن السيد السبزواريقُدِّسَ سِرُّهُ يذهب في تفسير المواهب إلى أن الحق في معنى هذه الآية هو الحمل على العموم، بمعنى أن العبد يذكر الله سبحانه وتعالى في كل مظهر من مظاهر العبودية، حتى يدرك ذكر الله تعالى له في كل مظهر من مظاهر رحمته وجوده، ومنه ما ورد في الحديث:

(أنا عند ظن عبدي المؤمن، إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأٍ خير منه).

وهو يجازي عبده بالجزاء الأوفى، ويعد له باللطف

(١) الصافات: ١٤٣-١٤٤.

(٢) غافر: ٦٠.

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، ج١، ص٣٥٥.

والكرامة والإحسان ومزيد من النعم، ويضاعف لمن يشاء إنه ذو فضل عظيم.

فلا يختص ذكره تعالى الذاكرية بعالم دون آخر، ولا بحالة دون أخرى[١].

• هو الذي يصلي عليكم وملائكته

ولتعميق معنى ذكر الله لنا لنتأمل في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...﴾[٢].

فهذه الآية الكريمة التي انطلق منها البحث في نداء الذكر الإلهي تأمر المؤمنين بالذكر الإلهي الكثير ثم تقول: هو الذي يصلي عليكم.. والصلاة هنا بمعنى الرحمة المستمرة من الله على عباده.. فنعم الله ورحمته مستمرة تكويناً ولا يمكن بحال تصور انقطاع هذه النعم.. وهذا يعني أن الله سبحانه ذاكرنا دائماً، وذكره لنا مستمر في جميع لحظات ومستويات وجودنا، إذن لا بد أن نذكره ذكراً كثيراً لأنه يذكرنا كثيراً، فهناك معادلة دقيقة

---

(١) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ج٢، ص١٩٦.

(٢) الأحزاب: ٤١-٤٣.

يعرضها القرآن بين ذكر الإنسان لله أو ذكر الله للإنسان.. وتكون نتيجتها: ليخرجكم من الظلمات إلى النور.. أي من خلال تحقق طرفي هذه المعادلة (الذاكر والمذكور) و(الذكر الإلهي للإنسان) و(الذكر الإنساني لله) سوف تكون حياتكم منورة بنور الله سبحانه .. ومن دون تحقق هذه المعادلة سيبقى الإنسان في الظلمات.. ونعني بها ظلمات الغفلة والنسيان! والله نور السمٰوات والأرض.

قال العلامة الطبأطبائيقدس سره في بيان هذه الآية:

المعنى الجامع للصلاة على ما يستفاد من موارد استعمالها هو الانعطاف فيختلف باختلاف ما نسب إليه، ولذلك قيل: إن الصلاة من الله الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار، ومن الناس الدعاء، لكن الذي نسب من الصلاة إلى الله سبحانه في القرآن هو الصلاة بمعنى الرحمة الخاصة بالمؤمنين وهي التي تترتب عليها سعادة العقبى والفلاح المؤبد ولذلك علل تصليته عليهم بقوله: ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾[1].

وقد رتب سبحانه في كلامه على نسيانهم نسيانه لهم، وعلى

(١) الأحزاب: ٤٣.

ذكرهم له ذكره لهم، فقال: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[١]، وقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[٢]، وصلاته عليهم ذكر منه لهم بالرحمة، فإن ذكروه كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً صلى عليهم كثيراً وغشيهم بالنور وأبعدهم عن الظلمات.

ومن هنا يظهر أن قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ...﴾[٣] في مقام التعليل لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾[٤] ويفيد التعليل أنكم إن ذكرتم الله كثيراً ذكركم برحمته كثيراً وبالغ في إخراجكم من الظلمات إلى النور، ويستفاد منه أن الظلمات إنما هي ظلمات النسيان والغفلة والنور نور الذكر[٥].

ولتأكيد هذا المعنى للذكر الإلهي نتوقف عند هذه الرواية المنقولة عن الإمام الصادق عليه السلام.. والتي يؤكد فيها على أن الذكر المطلوب ليس هو الذكر اللفظي.. بل حقيقة الذكر الإلهي التي يجد الإنسان في نفسه وصقع وجوده تلك المساحة النورانية والأرض الطيبة والجزء الإلهي الذي يسمى من أجله ذاكراً.

---

(١) التوبة: ٦٧.

(٢) البقرة: ١٥٢.

(٣) الأحزاب: ٤٣.

(٤) الأحزاب: ٤١.

(٥) الميزان في تفسير القرآن: ج١٦، ص٣٢٥.

(عن زيد الشحام قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: ما ابتلي المؤمن بشيء أشد عليه من ثلاث خصال يحرمها، قيل: وما هي؟ قال: المواساة في ذات يده، والإنصاف من نفسه، وذكر الله كثيراً، أما إني لا أقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وإن كان منه، ولكن ذكر الله عندما أحلّ له، وذكر الله عندما حرّم عليه)[1].

فذكر الله الحقيقي ليس هو التلفظ بالتسبيح وغيره.. وإنما هو ذلك الحضور الإلهي والمساحة النورانية في باطن الإنسان والتي تمنعه من ارتكاب المعصية حين القدوم عليها، والتي تذكر الإنسان بالله حين القيام بالأمور المحلّلة والمباحة، فإن الذي حللها له هو الله سبحانه وهو الذي يستحق الحمد عليها. وكلما ازداد الحضور الإلهي في نفس الإنسان وأصبح كثيراً كلما انحسرت مساحة الغفلة والنسيان وابتعد الإنسان عن ارتكاب المعصية بل يبتعد حتى عن التفكير فيها والعزم عليها.

(١) الكافي: ج٢، ص١٤٥، بحار الأنوار: ج٧٢، ص٣٥.

المبحث الخامس

• كيف ينسانا الله وكيف ننساه؟

من القضايا الجوهرية التي يركز عليها القرآن في بحث الذكر هو تأكيده على ما أسميه (ثنائية الذكر والنسيان) فهناك مقابلة قرآنية واضحة بين الذكر الإلهي والذكر الإنساني، وبين النسيان الإلهي والنسيان الإنساني.. بمعنى أننا إذا ذكرنا الله فالله تعالى يذكرنا.. وإذا نسينا الله، فالله ينسانا.. ومن هنا إذا أردنا معرفة ذكر الله لنا لا بد أن نقف أولاً على معنى نسيان الله لنا.. لأنهما معنيان متقابلان.. وتتجلى هذه المقابلة الثنائية القرآنية بشكل واضح في هاتين الآيتين الكريمتين:

قال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[2].

لا يخفى أن معنى النسيان بالنسبة إلى الإنسان واضح وهو زوال صورة الشيء أو حضوره من النفس والقلب، فيسمى

---

(١) التوبة: ٦٧.

(٢) البقرة: ١٥٢.

ناسياً، ويقابله الذكر بمعنى حضور الشيء في النفس والقلب. لكن ما معنى أن يكون الله ناسياً؟ وكيف يتحقق هذا النسيان الإلهي؟ خصوصاً مع التركيز القرآني على هذا النسيان، كما في الآية الكريمة التالية:

قال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾[1].

وقال تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾[3].

وقال تعالى: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾[5].

إن النسيان - كما تقدم- هو زوال صورة المعلوم عن النفس بعد حصولها فيها مع زوال مبدئه من النفس، ولكن قد

(١) الجاثية: ٣٤.

(٢) السجدة: ١٤.

(٣) طه: ١٢٦.

(٤) التوبة: ٦٧.

(٥) الحشر: ١٩.

يتوسع في إطلاق معنى النسيان على مطلق الأعراض عن الشيء من خلال عدم ترتيب الأثر عليه، بمعنى أنك لو أعرضت عن إنسان ما وتركته تماماً وقصدت أن لا ترتب أي أثر على وجوده أو كلامه فإنك حينئذٍ نسيته، وفي هذا المعنى قال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾(١) أي نعرض عنكم ولا نقيم لكم وزناً.

وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾(٢) يبين معنى نسيان الله، فإن سبب نسيان النفس هو نسيان الله تعالى، إذ عندما ينسى الإنسان الله تعالى سوف ينسى أسماءه الحسنى وصفاته العليا التي ترتبط بها صفات الإنسان الذاتية من الذلة والفقر والحاجة، فيتوهم الإنسان نفسه مستقلة في الوجود ويتخيل أن لنفسه حياة وقدرة وعلماً وسائر صفات الكمال بشكل مستقل لأنه نسى الله تعالى، وعند ذلك يعتمد على نفسه في حين كان عليه أن يعتمد على ربّه وخالقه.. ويرجو ويخاف الأسباب الظاهرية لأنه يظن أنها مستقلة مثله في حين أنه كان عليه أن يرجو ويخاف ربّه، ويطمئن إلى غير ربّه وكان عليه

---

(١) الجاثية: ٢٤.

(٢) الحشر: ١٩.

أن يطمئن إلى ربّه.. فتكون حياته قائمة على نسيان ربّه والرجوع إليه والإعراض عنه سبحانه والإقبال إلى غيره من الأسباب الظاهرية الكونية التي يتوهمها أن لها استقلال وتأثير في الوجود من دون الله سبحانه.

واستناداً إلى هذه الحقيقة سوف تتفرع لديه نتيجة أخرى وهي أن ينسى نفسه بعد أن نسي ربّه!! فإن تلك الحالة التي حصلت عنده أولاً وهي تخيله أنه موجود مستقل يملك كمالاته الوجودية.. وأن تدبير أمره بيده مستنداً إلى ما حوله من الأسباب الكونية، ليست واقعاً حقيقياً، بل واقعه الحقيقي أنه موجود متعلق الوجود، عجز كلّه، فقر كلّه، ذلّة كلّه، وأن ماله من الكمال كالوجود والعلم والقدرة والعزة والغنى فهو لربّه وكذلك حال جميع الأسباب الكونية التي تحيط بوجوده.

والحاصل لما كان سبب نسيان النفس هو نسيان الله تعالى حوَّل النهي عن نسيان النفس في الآية ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ...﴾ إلى النهي عن نسيانه تعالى[1].

فالله سبحانه وتعالى ينسى الإنسان بمعنى يتركه ويعرض عنه وذلك عندما ينسى الإنسان ربّه ويعرض عن ذكره تعالى..

(١) ينظر: الميزان في تفسير القرآن، ج١٩، ص٢٢٧.

ولا بد أن نؤكد هنا أن ذكر الله للإنسان دائم ومستمر تكويناً وذلك بنزول النعم والرحمة وإفاضة الوجود الذي يحيى به الإنسان.. لكن الإنسان يعرض عن هذه النعمة فيوكله الله إلى نفسه.. ونتيجة ذلك هلاكه في عالم الأسباب الظاهرية لأن عالم الدنيا ليس إلا ممراً ومزرعة للآخرة.. فإذا أقفل الإنسان قلبه ولم يترك فيه نافذة لإطلالة وإشراق النور الإلهي سوف ينسى الله لا محالة ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾[1] ليس فيك جهة طيبة أو نورانية تنقذك منها. فتكون منسياً تماماً، تركت الله وأعرضت عنه في نشأة الدنيا.. فكذلك هنا يتركك الله ويعرض عنك.. طبقاً لهذه القاعدة القرآنية والسنّة الكونية.

● النسيان الإلهي في الروايات

نذكر هنا بعض النصوص الواردة عن أهل البيت عليهم السلام حول موضوع النسيان الإلهي.

عن عبد العزيز بن مسلم قال: سألت الرضا عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ فقال: إن الله تبارك وتعالى لا ينسى ولا يسهو، وإنما ينسى ويسهو المخلوق المحدث، ألا تسمعه عز وجل يقول: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾، وإنما يجازي من

(١) طه: ١٢٦.

نسيه ونسي لقاء يومه أن ينسيهم أنفسهم كما قال عز وجل: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ﴾ وقوله عز وجل: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾أي نتركهم كما تركوا الاستعداد للقاء يومهم هذا[١].

وفي تفسير العياشي عن جابر عن أبي جعفرعليه السلام ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ قال: (تركوا طاعة الله، (فنسيهم) قال: فتركهم[٢].

وفيه أيضاً عن أبي معمر السعداني قال: (قال عليعليه السلام في قوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾فإنما يعني أنهم نسوا الله في دار الدنيا فلم يعملوا له بالطاعة ولم يؤمنوا به وبرسوله فنسيهم في الآخرة، أي لم يجعل لهم في ثوابه نصيباً، فصاروا منسيين من الخير)[٣].

• كيف يتحقق نسيان الله عند الإنسان؟

قلنا أن بحث الذكر الإلهي لا يكتمل من الناحية المنهجية والقرآنية إلا مع تحقيق وبيان معنى النسيان لأنهما معنيان متقابلان، وفي هذه الفقرة من البحث نريد أن نعمق معنى النسيان الذي يحصل عند الإنسان، فكيف ينسى الإنسان الله ربّه

---

(١) مسند الإمام الرضا: ج١ـ ص٣٤٠.

(٢) بحار الأنوار: ج٤، ص٩١.

(٣) بحار الأنوار: ج٤، ص٩١.

وخالقه ومدبر أمره؟ كيف ينتفي الحضور الإلهي من حياة الإنسان، والله نور السمٰوات والأرش.. وهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد... بل يحول بين المرء ونفسه حسب التعبير القرآني؟!

يجدر بنا التأكيد أولاً أن الإنسان في أصل خلقته وحقيقته ذاكر وليس ناسياً، وذلك بمقتضى فطرته التي فطره الله عليها التي تقتضي أن يعرف خالقه وموجده، وأن لديه علماً حضورياً بأنه مخلوق ممكن فقير لله سبحانه.. يدرك ذاته الفقيرة للغني المطلق.

إذن، من أين جاءنا النسيان؟ الجواب بصورة مختصرة: أن سبب النسيان هو الركون إلى الدنيا.

بيان ذلك: أن الإنسان – حسب تعبير القرآن– هبط إلى النشأة الدنيوية من ذلك العالم الإلهي النوراني السماوي، وقد ثبت في محله من البحث الفلسفي أن نشأة الدنيا هي عالم الإمكان والأسباب والمسببات، إذ عندما يجوع الإنسان يحتاج إلى الطعام، وعندما يعطش يحتاج إلى الماء، وعندما يمرض يحتاج إلى الدواء، وعندما يريد أن يستمر بالحياة يحتاج إلى الهواء لكي يتنفس، ويحتاج إلى الأب والأم لكي يوجد في هذا العالم بالشكل

الطبيعـي، وهكـذا إلى آلاف بـل ملايـين المقـدمات والـشروط التكوينية الداخلة في وجود الإنسان وديمومته في عـالم الـدنيا، إذ لا يوجـد شيء في هـذا العـالم إلا مـن خـلال أسـبابه التكوينيـة الخاصة والتي يطلق عليها في الفلسفة (العلـل الوسـطى)، فهـذا هو حال عالم الأسباب والمسببات.

وعندما وجد الإنسان في هذا العالم تعلق بالأسباب تعلقـاً حقيقيـاً لا وهميـاً لأنـه بالفعـل بحاجـة إلى الأسـباب المـذكورة لاستمرار حياته، لكن المشكلة حدثت عندما انغمس الإنسان في الاعتماد عليها والتوغُّل فيها.. وهذا الحال أنتج وهماً جديداً عند الإنسان عندما تصور أنها أسباب حقيقية تتوقـف عليهـا حياتـه بـشكل مـستقل، إذ مـن الواضـح أنـه بحاجـة إلى المـال مـثلاً والإمكانات الدنيوية الأخرى.. بل إنه محتاج إلى الشهوة لأنـه لا يستطيع أن يأكل أو يشرب بدون تحقق شهوة الطعام والشراب.. ولذا نرى الشخص المـريض يُعـرِض عـن الطعـام مـثلاً وذلـك لانتفاء شهوته له.. كل هذه الأسباب توهمنا أنها أسـباب واقعيـة مستقلة في التأثير في حياتنا.. وبسبب ذلـك أخلـدنا لهـا وعكفنـا عليها لأن حب الحياة والاستمرار فيها أمـر فطـري لا يمكـن أن نتجاوزه.. في حين أن الواقـع لـيس كـذلك لأن هـذه الأسـباب

والمسببات جميعاً محتاجة لله سبحانه وفقيرة له أشد الفقر، ومرتبطة به أشد الارتباط والتعلُّق، لكن الإنسان بسبب انغماسه وحاجته لهذه الأسباب نسى الله خالقه وخالقها أو غفل عنه، وهذا هو السبب الأكبر في نسيان الله وهو التعلُّق بالأسباب المادية والاستناد إليها بصورة مطلقة، بالرغم من أن الإنسان لم يخلق للبقاء في عالم الدنيا ولا أن أصله وفطرته تنتمي لعالم الدنيا.. بل هو ينتمي في حقيقته للعالم السماوي العلوي، لكن الوهم المذكور سيطر عليه وأنساه الله سبحانه حتى وصل الأمر إلى أن الإنسان اتخذ من الأسباب المادية والدنيوية آلهة تعبد وتُطاع من دون الله، كما يعبر القرآن عن ذلك بقوله تعالى: ﴿اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[1] .. ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾[2]!! ومن هنا ورد أن (حب الدنيا رأس كل خطيئة) فالخطيئة والتمرُّد والمعصية أساسها دنيوي وليس سماوياً أو فطرياً، وبذلك يكون حب الدنيا والركون إليها بشكل مستقل مطلق أرضاً خصبة تنمو فيها الخطايا والذنوب والسيئات.

بناء على ذلك لا يمكن أن يجتمع حب الله وحب الدنيا في

(١) الفرقان: ٤٣.

(٢) النجم:٢٣.

قلب الإنسان لأنهما أمران متضادان تماماً، فإذا أحب أحدهما خرج الآخر من قلبه لا محالة، لأن حب الله يمثل العالم العلوي.. عالم النور والطهارة والكمال.. وحب الدنيا يمثل العالم السفلي عالم الشهوات والظلمات.. من هنا يقول أمير المؤمنين عليه السلام أن الدنيا عندي أزهد من عفطة عنز!!! ولذلك طلقها ثلاثاً لا رجعة فيها! وهذا هو حال من امتلأ قلبه بحب الله إذ لا مساحة فيه لحب الدنيا أو الركون إليها.. في حين أن الذي يركن إلى الدنيا وأسبابها وينسى الله سبحانه سوف تحيط به الخطيئة ويسقط في حبائل الدنيا وظلماتها كما يعبر القرآن عن ذلك، لأن الانقطاع عن النور الحقيقي لا ينتج إلا السقوط في الظلمات. ولذا تأتي الرسالات السماوية ولسان حالها يقول: (ليخرجهم من الظلمات إلى النور).

● صورة الدنيا في القرآن

وما دام حب الدنيا رأس كل خطيئة، وهو الذي يستند إليه نسيان الله والغفلة عنه فيجدر بنا أن نحمل صورة وافية عن الدنيا كما رسمها لنا القرآن الكريم في كثير من آياته التي تحدثت عن الدنيا وأوصافها الحقيقية والتي وصفتها بأنها (لعب) و(لهو) و(دار الغرور) وغيرها، ومن الآيات الجامعة لأوصاف الدنيا

قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوالِ وَالأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[1].

في هذه الآية ستة أوصاف للحياة الدنيا وهي (اللعب) و(الزينة) و(اللهو) و(التفاخر) و(التكاثر في الأموال والأولاد) و(متاع الغرور) وسنقف بشكل مختصر على كل من هذه الأوصاف لكي تتضح الصورة التي يريد أن يرسمها القرآن عن الحياة الدنيا.

● اللعب: هو كل فعل يصدر لغاية خيالية لا حقيقية، وذلك كألعاب الأطفال، بل كل فعل فقد الهدف الحقيقي فهو لعب.. ونقصد بالحقيقية هنا هو ذلك الهدف أو الغاية المترتبة تكويناً على الفعل والتي فيها سعادة الإنسان وكماله، وعليه فالإنسان الذي يجعل الحياة الدنيا هي هدفه الحقيقي والوحيد فإنه في الحقيقة يلعب!! شأنه شأن الأطفال المغمورين بالألعاب والذين يتخيلون أن هذه الألعاب تتوقف عليها حياتهم! وما هو إلا خيال سيتبدد عندما يتجاوزون هذه المرحلة من أعمارهم.

(١) الحديد: ٢٠.

● اللهو: هو كل فعل يُلهي الإنسان ويشغله بنفسه عما يهمّه، بمعنى إذا كان للإنسان هدف مهم واشتغل بعمل يلهيه عن ذلك الهدف فإن فعله هذا يسمى (لهواً)، وعليه فاللهو له معنى نسبي واقع بين أفعالنا، فعبادة الله مثلاً هي أحد أهم الأهداف التي تتوقف عليها سعادة الإنسان وشقائه في الدنيا والآخرة، ولو اشتغل بعمل يشغله عن العبادة فسيكون ذلك العمل لهواً في نظر القرآن بالرغم من أهميته الدنيوية بنظر الفاعل.

ومن الجدير بالذكر أن نؤكد هنا أننا لا نقصد من ذلك ترك الدنيا مطلقاً بل المقصود هو الأخذ من الدنيا بقدر الضرورة والحاجة التي يفرضها العيش في هذا العالم وبالتعبير القرآني: ﴿وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا﴾[1]، وعلى الإنسان أن يوازن في حاجته للحياة الدنيا بالشكل الذي ينسجم مع متطلبات حياته الأخرى وأن لا ينغمس في ظلمات الدنيا وملذاتها الفانية.. بل الدنيا ممرّ والآخرة هي المستقر، قال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[2].

---

(١) القصص: ٧٧.

(٢) العنكبوت: ٦٤.

بمعنى أن الحياة التي تستحق أن تسمى حياة هي حياة الدار الآخرة أما الحياة الدنيا فإن القرآن يطلق عليها بأنها حياة لكن مع أوصاف اللهو واللعب والغرور!! أي هي ليست حياة بالمعنى الحقيقي والدقيق للحياة.

● الزينة: وهي ضم شيء مرغوب فيه إلى شيء آخر ليرغب فيه بما اكتسب به من الجمال. وهذا يعني أن الشيء الأول غير مرغوب فيه بنفسه بل لا بد أن نزينه بشيء آخر مرغوب فيه. ومن الملفت للنظر أن أغلب الآيات الواردة في الزينة تتحدث عن الحياة الدنيا وأما الآخرة فلا يصفها الله بالزينة لأن الدار الآخرة هي دار الحياة الحقيقية التي لا تحتاج إلى شيء آخر يرغّب فيها أو يزيّنها!!

لكن الله سبحانه يزين هذه الدنيا بزينة الأموال والأولاد والأمور الأخرى لأن الحياة الدنيا في حقيقتها قبيحة لو اطلع عليها الإنسان حقيقة لما تقرّب منها، لكن الزينة تجعل الإنسان يستمر في طلب هذه الحياة فينغمس فيها بسبب الزينة وينسى الله والحياة الحقيقية في الآخرة. قال تعالى: ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ...**﴾[1].

(١) الكهف:٤٦.

● التفاخر: هو المباهاة بالأنساب والأحساب، والتفاخر من التفاعل فيكون معناه المنافسة بين طرفين كل منهما يفتخر على الآخر، والقرآن يعطف التفاخر على اللهو واللعب أي أنه أمر موهوم خيالي لا حقيقة له في صراط الوجود، لأن التفاخر الحقيقي إنما يحصل في التنافس على درجات السعادة والكمال الحقيقي.

● التكاثر: أيضاً هو من المفاعلة والتنافس في كثرة الأموال والأولاد وقد عطفه القرآن أيضاً على اللهو واللعب والزينة وهذا يدل على أنه ليس أمراً حقيقياً، حاله حال اللعب واللهو.. ومن الدليل على ذلك أن كثرة المال والبنون ليست من الأمور النافعة يوم القيامة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ﴾[(١)].

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الآية الكريمة ذكرت التكاثر في الأموال والأولاد من باب أبرز المصاديق، فإن هناك أنواع كثيرة للتكاثر وخصوصاً التكاثر المعنوي كالشهرة والنفوذ والسلطة ولعل التكاثر المعنوي أشدُّ فتكاً بالإنسان من التكاثر في المال والأولاد.

يقول سيدنا الشهيد السعيد محمد الصدرﷺ حول التكاثر:

---

(١) الشعراء:٨٨.

التكاثر: إما إثباتي أو ثبوتي، فالتكاثر الإثباتي هو كل صورة ذهنية لهدف دنيوي كأحلام اليقظة أو التخطيط لتجارة معينة، فهو ليس تكاثراً حقيقياً خارجياً، لكنه تكاثر إثباتي.

ومن انتهى إلى هذه الأفكار فقد غفل عن الآخرة ولهي بالدنيا عنها، في حين أن التكاثر الثبوتي هو تطبيق تلك الأفكار عملياً وهو أشد في تسبيب اللهو[١].

ثم يقول: إن من مصاديق ذلك اللهو العرفي بالالتزام بما هو أدنى عرفاً وترك ما هو أعلى، ومن مصاديقه الرئيسية أيضاً التلهي بأعمال الدنيا عن أعمال الآخرة. ومن مصاديقه أيضاً أن الإنسان منصرف إلى عمله الشخصي وينسى العمل لغيره، فيكون عمله سبباً للغفلة عن عمل الآخرين الأكثر أهمية[٢].

ومن هنا يظهر أن الاقتراب من الدنيا دائماً يقابله ابتعاد عن الله والآخرة، قال تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[٣] لأنهم يهتمون بالدنيا وكأن الآخرة غير موجودة، فقوله: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾[٤] أي صار سبباً لغفلتكم عن الله سبحانه والآخرة.

---

(١) منة المنان في الدفاع عن القرآن: ج١، ص٣٣٢.
(٢) نفس المصدر والصفحة.
(٣) الروم: ٧.
(٤) التكاثر: ١.

● متاع الغرور: الغرور هو إيهام يحمل الإنسان على فعل ما يضرّه ويوافق هواه أو هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، كغرور الإنسان بالمال والشهرة والجاه.

وأما الأصل اللغوي للغرور فهو مادة (غرّ) على وزن (حرّ) بمعنى الأثر الظاهر للشيء، ويقال: غرة للأثر الظاهر في جبهة الفرس، ثم أطلقت الكلمة على حالة الغفلة، حيث أن ظاهر الإنسان واعٍ لكنه غافل في الحقيقة فهو مغرور، وتستعمل أيضاً بمعنى الحيلة والخديعة، فالمغرور يرى الأسباب الظاهرية ولكنه في غفلة عن الحقيقة وباطن الأشياء.

قال تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾[1].

لقد عرفنا فيما سبق أن الدنيا لعب ولهو، لكن هذه الآية تقول عن فئة من الناس أنهم اتخذوا (دينهم) لعباً ولهواً!!! فكيف يصبح الدين لعباً ولهواً؟! وهذه التفاتة دقيقة من القرآن لأن هذه الفئة من الناس اتخذت من الحياة الدنيا حياة حقيقية يبذلون كل غالٍ ونفيس من أجلها وهذا يؤدي إلى أن يصبح دينهم لعباً ولهواً، فيقدمون دنياهم الفانية على دينهم وآخرتهم الباقية!

---

(١) الأنعام: ٧٠.

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾[1].

أي أن الاغترار بالحياة الدنيا يقلب المعادلة الصحيحة فيصبح الدين هو اللهو واللعب، وتكون الحياة الدنيا هي الحقيقة!!

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾[2].

لنتأمل كيف تنقلب الموازين عند الإنسان المنافق، بحيث يصبح وعد الله ورسوله غروراً!! كل ذلك بسبب النظر إلى الدنيا على أنها حقيقة مطلقة لا يصيبها الفناء والهلاك! والواقع يكذب ذلك فإنها زائلة فانية لا محالة.

(فالحياة الدنيا عرض زائل وسراب باطل لا يخلو من هذه الخصال الخمس المذكورة: اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر وهي التي يتعلق بها هوى النفس الإنسانية ببعضها أو بجميعها وهي أمور وهمية وأعراض زائلة لا تبقى للإنسان، وليست ولا واحدة منها تجلب للإنسان كمالاً نفسياً ولا خيراً حقيقياً.

فتكون: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ

---

(١) الأعراف: ٥١.

(٢) الأحزاب: ١٢.

مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً﴾[١]، فالغيث المطر، والكفار جمع كافر بمعنى الحارث، ويهيج من الهيجان وهو الحركة، والحطام الهشيم المتكسّر من يابس النبات.

فالمعنى: أن مثل الحياة الدنيا في بهجتها المعجبة ثم الزوال كمثل مطر أعجب الحراث نباته الحاصل بسببه ثم يتحرك إلى غاية ما يمكنه من النمو فتراه مصفر اللون ثم يكون هشيماً متكسراً متلاشياً تذروه الرياح)[٢].

● **الشيطان يغرّكم بالله!**

من الحقائق القرآنية الملفتة للنظر هو أن الشيطان يغرّ الإنسان بالله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾[٣] وهذا غرور آخر غير غرور الدنيا، و(الغَرور) بفتح الغين صيغة مبالغة من الغُرور بضم الغين، وهو الذي يبالغ في الغرور ومن عادته ذلك، والظاهر أن المراد به الشيطان ويؤيده التعليل الواقع في الآية التي بعدها وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾[٤].

---

(١) الحديد: ٢٠.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ج١٩، ص١٧٠.

(٣) لقمان: ٣٣.

(٤) فاطر: ٦.

ومن هنا نسأل: كيف يغرّنا الشيطان بالله سبحانه؟!

في هذا المجال يذكر العلامة الطباطبائي قدّس سرّه: معنى غرروه بالله توجيهه أنظارهم إلى مظاهر حلمه وعفوه تعالى تارة، ومظاهر ابتلائه واستدراجه وكيده تارة أخرى، فيرون أن الاشتغال بالدنيا ونسيان الآخرة والإعراض عن الحق والحقيقة لا يستعقب عقوبة ولا يستتبع مؤاخذة، وأن أبناء الدنيا كلما أمعنوا في طلبهم وتوغلوا في غفلتهم واستغرقوا في المعاصي والذنوب زادوا في عيشهم طيباً وفي حياتهم راحة وبين الناس جاهاً وعزة، فيلقي الشيطان عند ذلك في قلوبهم أن لا كرامة إلا في التقدم في الحياة الدنيا، ولا خبر عما وراءها، وليس ما تتضمنه الدعوة الحقة من الوعد والوعيد وتخبر به النبوة من البعث والحساب والجنة والنار إلا خرافة!!

فالمراد بغرور الشيطان - في قوله لا يغرنكم بالله- هو اغترار الإنسان بما يعامل به الله الإنسان على غفلته وظلمه[1].

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج١٧، ص١٧.

المبحث السادس

• التعلق بالله عند تقطع الأسباب

قلنا فيما سبق أن السبب الرئيسي في نسيان الله تعالى والغفلة عنه هو الانغماس في الأسباب الدنيوية حتى يصل الإنسان إلى درجة عالية في ذلك ويتوكل على هذه الأسباب بصورة مستقلة عن الله سبحانه، ولا بد أن نؤكد هنا أن المحذور ليس هو الاستعانة بالأسباب الدنيوية نفسها، وإنما المحذور هو النظر إليها والاتكال عليها بصورة مستقلة والتوغُّل فيها إلى درجة نسيان الله سبحانه، لأن الله في الحقيقة خلق هذا العالم بنظام الأسباب والمسببات كما ذكرنا سالفاً، فعندما يصاب الإنسان بألم الرأس مثلاً سوف يتناول حبّة الأسبرين، لأنه يعلم أن ذلك يرفع ألم الرأس ضمن نظام الأسباب التكويني، فإن المشكلة ليست في استعمال حبّة الأسبرين ذلك لأن الله جعل في هذه المادة المخصوصة الشفاء، بل المشكلة هو اعتقاد الإنسان أن السبب الحقيقي والوحيد في العلاج هو مادة الأسبرين، في حين أن الله سبحانه هو مسبب الأسباب وخالقها، ومن هنا ورد

النهي المشدّد في القرآن عن الغرور بالدنيا لأنه سيؤدي إلى نسيان الله.. ولذلك لو حصل أن تقطعت هذه الأسباب الظاهرية عن الإنسان وشارف على الهلاك الحقيقي سوف يتذكر الله سبحانه وتعالى، لأن فطرته متصلة تكويناً بالله وهو السبب الوحيد للنجاة لكن الغرور والغفلة هو الذي يحجب الفطرة ويغطيها، وفي هذا المعنى يقول أمير المؤمنينعليه السلام: (لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً)، بمعنى أنه سلام الله عليه لا غطاء لديه أصلاً لكي يحجبه عن اليقين بالله عز وجل. ومن أهم الشواهد على حال الإنسان عندما تتقطع به الأسباب هو هذه المحاورة العظيمة المنقولة عن الإمام الصادقعليه السلام.

وهي: أن رجلاً سأل الإمام الصادقعليه السلام فقال: يا ابن رسول الله دلني على الله ما هو؟ فقد أكثر عليَّ المجادلون وحيّروني.

فقالعليه السلام: يا عبد الله هل ركبت سفينة قط؟

قال: نعم.

قالعليه السلام: فهل كسرت بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك؟

قال: نعم.

قال‰: فهل تعلّق قلبك هناك أن شيئاً من الأشياء قـادر على أن يخلصك من ورطتك؟

قال: نعم.

قال‰: فذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حيث لا مُنجي، وعلى الإغاثة حيث لا مُغيث!

في هـذه الروايـة يـسأل الـسائل سـؤالاً مبـاشراً وحاسـماً وواضحاً ويشكو حيرته مـن كـلام المجـادلين، فيقـول: يـا ابـن رسول الله دُلّني على الله!!

وحيـث أن الإمـام‰ يعلـم أن الحاجـب الأسـاس في الإنسان الذي يبحث عن الله هو الغفلة، والغفلة سـببها التعلُّـق بالأسباب الدنيوية الظاهرية فـأراد‰ أن يجيبـه بجـواب يرفـع عنه التعلُّق بهذه الأسباب لكي تنجلي له الحقيقة، ومن المعلوم في ذلـك الزمـان عـدم وجـود اتـصالات أو وسـائل تكنولوجيـة للتواصل والإعلام الـسريع فعنـدما تنكـسر الـسفينة في عـرض البحر سوف تتقطع بها الأسباب حقيقة.. لكن الإنسان الموجـود في السفينة سـوف يبقـى قلبـه متعلّقـاً بـشيء ينجيـه مـن الغـرق والهلاك، الإمام‰ يقول: إن ذلك الـشيء هـو الله القـادر عـلى نجاتك حيث لا مُنجي.. وعلى إغاثتك حيث لا مُغيث!! فتتذكر

الله سبحانه بعد أن كنت غافلاً عنه أو ناسياً له.

وعلى ضوء هذا المعنى تتجلى لنا أهمية الذكر الإلهي في حياة الإنسان، حيث أن الله سبحانه يريد أن تكون حالتنا هكذا دائماً سواء كنا في عرض البحر أم في بيوتنا.. يكون حضور إلهي في حياتنا.. نذكر الله كثيراً.. ونسبحه بكرةً وأصيلاً.. لا تحجبنا عنه مظاهر الدنيا الفانية وأسبابها الزائلة.

ومن الجدير بالالتفات أن مثال السفينة الذي ذكره الإمامعليه السلام يعود في أصله إلى مبدأ قرآني أكدته كثير من الآيات القرآنية، منها:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنْ الشَّاكِرِينَ * قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾(٢).

وفي هذه الآية الكريمة يقول: ﴿ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي أن الله سبحانه هو المُنجي دائماً وليس في البحر فقط، وكأن ذكر

(١) الإسراء: ٦٧.

(٢) الأنعام: ٦٣-٦٤.

البحر من باب أبرز المصاديق.. ولو أردنا أن نمثّل لذلك في هـذا الزمان لمثّلنا في ركوبنـا الطـائرة في الجـو إذ لـو تعطّلـت الطـائرة بسبب خلل ما أثناء الطيران سوف تحصل عندنا حالة الراكب في السفينة المكسورة في عرض البحر وهي الانقطاع عـن الأسـباب الدنيوية الظاهرية والتمسُّك بالله الواحـد الأحـد الفـرد الـصمد الذي لا شريك لـه! ولـذا قالـت الآيـة التـي بعـدها: ﴿قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ سواء كان كرباً في البحر أو الـبر أو الجـو.. أو في حيـاتكم الشخـصية أم الاجتماعيـة وغيرهـا فـالله سبحانه هو المنجي لا مُنجي ولا مُغيث غيره.. ثـم تقـول الآيـة: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾! أي تشركون وتتصورون أن الأسـباب هـي التي تُنجيكم في الحقيقة فتتمسكون بهـا عنـدما تـصلون إلى بـر الأمان!

ومن الحريّ بنـا أن ننقـل هنـا هـذه المقولـة الرائعـة التـي نذكرها دائماً عن السيد الشهيد السعيد محمد الـصدرقُدِّسَ سِرُّه.. لأنـه مـن الموحـدين الـذين تكـون أفعـالهم وكلامهـم كلهـا تجلّيـات للتوحيد الحقيقي، حيث يقـول عنـد مناقـشته للقـوى الماديـة في الغرب: (إنهـم يملكـون المـال والـسلاح، ونحـن مـاذا عنـدنا؟ الجواب: الله.. الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولـد

ولم يكن له كفواً أحد)!! فهو لم يقل إننا نملك المرجعية الدينية مثلاً! أو القواعد الشعبية بل قال: عندنا الله! وجميع الأسباب الأخرى بالرغم من أهميتها لكنها ترجع إلى مسبب الأسباب وخالقها ومن بيده أمرها وهو الله عز وجل، فينبغي على الإنسان المؤمن أن لا يجعل حياته خالية من الحضور الإلهي بل لا بد أن تكون مشرقة دائماً بنوره سبحانه وتعالى ويتحقق جواب قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾[1] ...﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾[2] .. لأن الله سبحانه هو المنجي الحقيقي.. ومع غيابه في حياتنا سوف نفقد النجاة ونُشرف على الهلاك لا محالة.

• الذكر الإلهي هو الماء الذي تحيا به بساتين حياتنا

ولتعميق أو تقريب معنى الذكر الإلهي وأثره الكبير في حياة الإنسان نضرب هذا المثال:

إن حياة الإنسان في هذا العالم كالمزرعة التي تحتوي على أشجار ونباتات مختلفة.. ومن المؤكد أننا لو قطعنا الماء عنها ستموت أشجارها وتنبت فيها الأشواك والنباتات الضارة.. وسوف تتحول أرض المزرعة إلى مساحة جرداء قاحلة.. إن حياة

---

(١) البقرة: ١٥٢.

(٢) الأحزاب: ٤١.

الإنسان بدون الذكر الإلهي والحضور الرباني ستكون مثل هذه الأرض الجرداء.. فلا يجد فيها الإنسان مقتضيات حياته وكمالاتها .. بل سيكون ميتاً يابساً.. يؤول أمره إلى الموت والهلاك.. وعليه فينبغي على الإنسان أن يربط أرضه التي يعيش فيها بجهة طيبة طاهرة لكي ينمو ويعيش في أرض الطيبات، وذكر الله سبحانه وحضوره يمثل هذه الجهة الطيبة ولذلك يقول: ﴿اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾[1]، أي لا يكفي الذكر القليل لأنه لا ينفع الإنسان وهو في هذه المزرعة الكبيرة التي لا تكفيها قطرات من الماء بل لا بد من ماء جارٍ كثير، ولا بد أن يكون هذا الماء سماوياً حتى تكون ثمرته شافية هادية واعظة حيّة بالحياة الحقيقية.. بتعبير آخر: تتخلق بأخلاق الله! وعلى ضوء ذلك سوف يحصل عندنا فهم آخر وجديد للدين والشريعة في حياتنا ويصبح الإنسان هو الذي يبحث عن الدين لكي يسقي مزرعة حياته وينقذها من الهلاك، وليس العكس كما يحدث في مثل هذه الأيام، حيث نرى بعض الناس يحتاج إلى آلاف الأدلة لكي يقتنع بضرورة الدين في حياتنا.

هل شاهدنا شخصاً ظمآناً مشرفاً على الهلاك يقول لا

(١) الأحزاب: ٤١.

أشرب الماء حتى تثبتوا لي بالدليل أن الماء يرفع العطش؟!! بالطبع كلا، لأن الإنسان العطشان يسعى نحو الماء ويبحث عنه وليس العكس كما هو واضح، ومن الغريب حقاً أننا نرى شبابنا في الوقت الحاضر يغير طريقة حياته وكيفية لباسه ويغير تفكيره وحتى طبيعته النفسية، وعندما تسألهم كيف آمنتم بذلك؟ هل أقاموا لكم أدلة؟؟ بالطبع كلا، بل مجرد مشاهدة برنامج تلفزيوني مثلاً أو التأثر بصديق يؤدي إلى تغيير منطقه وحياته وشكله وملابسه بهذه السرعة الهائلة!! لكن عندما تعرض عليه مضامين الدين يطالبك بألف دليل ودليل.. ومن هنا أيها الإخوة لا بد أن نعرف مسؤوليتنا - كطلاب علم - في كيفية عرض الدين على الناس، لا بد أن توضع معارف الدين في محلها الصحيح من حياة الإنسان فلا بد أولاً أن نبرز ظمأ الإنسان وجوعه وحاجته وفقره للسماء ثم نتكلم له عن الحضور الإلهي وضرورة الدين في حياته! فمن غير الممكن إقناع الآخرين بحقانية الدين والارتباط بالسماء ونحن لا نستطيع أن نعرض الفكر الديني ومعارفه بالطريقة الصحيحة.

يقول تعالى: ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾[1] فإن هذا القلب

(١) الكهف: ٢٨.

الغافل عن ذكر الله لا يستحق الطاعة والإتباع ولا يستحق أن يكون واعظاً وهادياً للآخرين لأنه قلب جاف، ميت، مظلم، فكيف يهتدي ويرتوي منه الآخرون؟!!

بل المطلوب هو التخلُّق بأخلاق الله أي يكون الله حاضراً في جميع مستويات حياتكم عندما تتكلم مع الآخرين.. عندما تتعامل معهم.. في أسرتك.. في الشارع.. في محل العمل.. تكون كل تصرفاتك وأخلاقك وسجاياك إلهية ترتوي من ذلك الماء الطاهر الذي هو جهة ارتباطك بالله سبحانه.. فيكون الله مذكوراً حاضراً.

إن قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾[1] هو تعبير مختصر وعظيم لكل الرسالات السماوية والتكاليف الشرعية الموجهة إلى الإنسان من عالم الغيب.

• تعميق لمعنى قوله تعالى﴿أَذْكُرْكُمْ﴾[2]

تقدم في البحوث السابقة بعض التوضيح لمعنى قوله تعالى: ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾أي معنى ذكر الله للإنسان، وهو كون الله ذاكراً والإنسان مذكوراً، وفي هذه الفقرة من البحث نحاول أن

(١) البقرة: ١٥٢.

(٢) البقرة: ١٥٢.

نعطي نظرة أخرى لهذا المقطع من الآية الكريمة، وهي: أن قولـه تعالى: ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ مترتب على قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ فيكون الذكر الإلهي للإنسان معلولاً للذكر الإنساني لله سبحانه، وقلنا أيضاً أن هذه العلاقة الحقيقية بين الأمرين قد ركّز عليها القرآن في كثير من آياته، أي أن الإنسان إذا ذكر الله فالله سبحانه يـذكره، وإذا لم يذكر الله سوف تترتب على ذلك نتائج حقيقية أهمها نسيان الله للإنسان، فالذكر الإلهي والنسيان الإلهي يمثلان معادلة جوهرية في مسيرة وجود الإنسان وصراط التكامل الذي يسلكه نحو الحق سبحانه وتعالى، وقد تقدم بيان آيات النسيان ومعناه، خصوصاً قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[1]، وقلنا أن معنى ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ هو أن يكون الله حاضراً في حياتنا، لكن ما معنى ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾؟

في الحقيقة لو نظرنا إلى ذكر الإنسان لله سبحانه بشكل دقيق ومعمّق نجد أن هذا الذكر الذي يتحقق في قلب الإنسان هو ذكر الله للإنسان بعينه! بعبارة أخرى الإنسان عندما يذكر الله سبحانه سوف يتحقق حضور إلهي في قلبه وحياته ووجوده، و﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ هو نفس هذا الذكر الموجود في القلب، لكن

(١) التوبة: ٦٧.

الإثنينية تحصل من حيثيات أخرى ومنشؤها الكثرة، فإذا حضر الله سبحانه في قلب الإنسان (وهو الذكر الأول) وصار الإنسان إلهياً في نفسه وقلبه وعقله ووجوده فإن الله سبحانه يذكره بنفس ذكره له! ولا يوجد تمايز حقيقي بين الذكرين ولا يكون كل منهما ذكراً مستقلاً بنفسه تكويناً، بل هو ذكر واحد حقيقة (تذكر الله والله يذكرك بنفس ذكرك له) لكن بسبب اختلاف الحيثيات بين الله وبين الإنسان، إذ الإنسان ممكن مخلوق محدود محتاج، والله سبحانه غني واجب لا محدود، يحصل عندنا ذكران وهما ذكر الله للإنسان، وذكر الإنسان لله، فذكر العبد لله هو نفسه ذكر الله للعبد، بمعنى أن هناك شفافية وجودية تحصل بين العبد وبين ربه عز وجل، عندما يذكر الله في قلبه، لأن القلب هو حرم الله كما يقول الإمام الصادق عليه السلام: (القلب حرم الله فلا تسكن حرم الله غيره)[1] .. وإذا امتلأ قلب الإنسان بالحب الإلهي فإن هذا الحب سوف يتجلى في حياة الإنسان ويهب الإنسان نظرة إلهية طاهرة لكل شيء موجود حوله في هذا العالم ويكون وجوداً طيباً نورانياً لا يصدر منه إلا الخير والكمال، فيكون كل من الله والإنسان حاضراً عند الآخر وهذا يعود إلى تحقق الحبّ من الجانبين..

---

(١) بحار الأنوار، ج٦٧، ص٢٥.

ولتقريب هذه الحالة وجدانياً فإنا نرى في حالة الحب الحقيقي أن المحبوب إذا حضر في قلب حبيبه، فإن الحبيب ينسى كل شيء سوى المحبوب.. فنراه ينسى الأكل والشرب والراحة والخلود إلى النوم!! بالرغم من حاجته الضرورية لكل ذلك.. فالحقيقة أن هناك اتحاداً بين الذاكر والمذكور بنحو من الدقة والعمق الذي ينسجم مع ما يليق بساحة الواجب تعالى عز اسمه.

ولا بد من الالتفات هنا أننا نتكلم عن هذه الحقيقة (إتحاد الذاكر والمذكور) بنحو العلم الحصولي والمفاهيم الذهنية.. وأما حقيقة ذلك واقعاً فلا يمكن إدراكها إلا بنحو خاص من العلم الحضوري الذي يتحقق به الإنسان ليصبح وجوده إلهياً. ويقرب هذا المعنى الحديث القدسي المعروف في باب قرب النوافل: (لا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به.. وبصره الذي يبصر به.. ويده التي يبطش بها)[1].

ومعناه أن الإنسان يصل إلى درجة عالية من القرب وحسب تعبيرنا في البحث أن يكون حاضراً في حياته ووجوده وبذلك يكون سمعه وبصره إلهياً وجميع تصرفاته إلهية (كنت يده

(١) الكافي: ج٢، ص٣٥٢، الحديث٧.

التي يبطش بها).. تكون حياته عبارة عن تجليات إلهية - ليس هو (الله) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً- بل يكون مظهراً للأسماء الإلهية في هذا العالم كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[1] فرحمة الله سبحانه في هذا العالم تتجلى في الوجود الطاهر للنبي الأكرمﷺ، وحيث أن رحمة الله سبحانه وسعت كل شيء كما هو مذكور في مقدمة دعاء كميل بن زياد فحينئذٍ نعرف مقام الرحمة الواسعة الذي يحتله النبي الخاتم في هذا الوجود.

والحاصل أن معنى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾يكون بنوع من التماهي والشفافية بين الله وبين الإنسان مما تقصر الألفاظ عن الإحاطة به والتعبير عنه لكن بالشكل الذي يبقى فيه الإنسان هو الممكن المحتاج والله سبحانه هو الغني المطلق.. قال السيد السبزواريقدس سره: (ثم إن ترتُّب قوله تعالى (أذكركم) على (أذكروني) من باب ترتب المعلول على العلّة التامة لأن التوجه الفعلي من العبد إلى الله عز وجل ذكرٌ منه تعالى للعبد بعناياته الخاصة! فيكون هذا المعنى من الذكر من الصفات ذات الإضافة، فإن أضيف إلى العبد يكون ذكراً منه، وإن أضيف لله

---

(١) الأنبياء: ١٠٧.

عز وجل يكون من ذكر الله تعالى للعبد)[١].

فينبغي إذن أن يكون الإنسان ذاكراً لله سبحانه لكي يكون هو مذكوراً عند الله ربه وخالقه.. وإلا سيلبث في سجن الدنيا وظلماتها وشهواتها ومعاصيها.

• الله يذكر الإنسان في الملأ الأعلى

إذا تحقق الذكر الإلهي للإنسان فهذا يعني أن الإنسان حاضر في الملأ الأعلى.. له حضور في عالم الغيب والملكوت.. بمقتضى قوله تعالى: ﴿**أَذْكُرْكُمْ**﴾ فالإنسان يذكر الله في عالم الشهادة والدنيا والله يذكره في عالم الغيب والملأ الأعلى، فيكون للإنسان ذلك المقام العظيم هناك وإن كان مجهولاً في عالم الدنيا وعند أهل الأرض! وبالعكس لعلّ إنساناً معروفاً مشهوراً عند أهل الأرض لكنه مجهول في السماء والملأ الأعلى! لأنه غافل عن الذكر الإلهي، والروايات الواردة في هذا الموضوع تؤكد ذلك.

عن أبي عبد الله عليه السلام: قال: (قال الله عز وجل: يا ابن آدم أذكرني في نفسك أذكرك في نفسي، يا ابن آدم أذكرني في خلأ أذكرك في خلأ، يا ابن آدم أذكرني في ملأ أذكرك في ملأ خير من ملئك)[٢].

---

(١) مواهب الرحمن في تفسير القرآن، ج٢، ص١٩٦.

(٢) بحار الأنوار: ج٩٠، ص١٥٨، حديث٣١.

وقال عليه السلام: (ما من عبد ذكر الله في ملأ من الناس إلا ذكره الله في ملأ من الملائكة)[١].

وعن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: (من أطاع الله فقد ذكر الله وإن قلت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن، ومن عصى الله فقد نسي الله وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن)[٢].

وعن ابي عبد الله عليه السلام: قال: (أوحى الله إلى موسى: يا موسى لا تفرح بكثرة المال، ولا تدع ذكري على كل حال، فإن كثرة المال تنسي الذنوب وإن ترك ذكري يقسي القلوب)[٣].

وعنه صلى الله عليه وآله: (إن موسى بن عمران عليه السلام لما ناجى ربه عز وجل قال: يارب، أبعيد مني فأناديك أم قريب فأناجيك؟ فأوحى الله جل جلاله: أنا جليس من ذكرني)[٤].

إن المتحصّل من هذه الروايات ونظائرها أن منشأ كل معصية هي الغفلة عن الله تعالى، وبتعبير آخر أن الله سبحانه لا يريد من الإنسان أن يكون مخلوقاً أرضياً دنيوياً ١٠٠٪ وإنما يريد أن يكون للإنسان حضور إلهي سماوي لأن أصل الإنسان

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج١٥، ص٣٦٩.
(٢) بحار الأنوار: ج٩٠، ص١٥٦، الحديث ٢٢.
(٣) بحار الأنوار: ج٦٧، ص٥٥، الحديث ٢٣.
(٤) بحار الأنوار: ج٩٣، ص١٥٣، حديث١١.

سماوي، فهو سبحانه يكرر ﴿اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾ لكي لا تنطفئ إنسانيتك في ظلمات الدنيا وتجعل من وجودك دنيوياً خالصاً خالياً من الروح والقلب والوجدان والعقل وبعيداً عن نور الإيمان والارتباط بالله عز وجل لأنك خليفة الله الذي نفخ فيه من روحه.. ولا بد أن تبقى هذه النفخة الإلهية والروح السماوي حيّة مُتّقدة حاضرة عند الإنسان في جميع عوالم وجوده.

● الله طيب لا يحضر عنده إلا الطيب

يقول أهل المعرفة أن الله سبحانه وتعالى طيب لا يحضر عنده إلا الطيب، وكذلك بأنه سبحانه نور السماوات والأرض فلا يحضر عنده إلا النور.. بناء على ذلك إذا انغمس الإنسان في ظلمات الدنيا والعالم الأرضي ونسي الله سبحانه أو غفل عنه سوف تنطفئ شعلة النور السماوي عنده ولا يكون حاضراً عند الله عز وجل.. ولكي لا يقع الإنسان في هذه الظلمات لا بد عليه أن يبقي نافذة النور الإلهي التي تمثل الجهة الطيبة في وجوده مفتوحة بالذكر الإلهي.. وقد ذكرنا في بحث نداء التوبة ما قاله العرفاء حول بقاء واستمرار الجهة الطيبة في وجود الإنسان.

قال القونوي في شرح الأسماء الحسنى: (اعلم أن من عموم رحمة الحق بعباده، أنه تعالى يقبل التوبة والطاعات لا

المعاصي، وذلك لأن المقبول مشهود، ولا يشهد الحق من عباده إلا ما هو حسن مقبول عنده، فالحسن المقبول من الأعمال في ديوان الحق، والسيئات في ديوان الملائكة، فإن الحق طيب لا يقبل إلا طيباً، ولا بد لكل عبد أن يكون على خلق من مكارم الأخلاق، وهو الأمر الطيب المقبول..)[1].

إذ من المستحيل أن تحضر السيئات والمعاصي عند الحق سبحانه وتعالى تكويناً لأنه طيب ونور لا يحضر عنده الخبيث والظلماني.. نعم تحضر تلك الأمور عند الملائكة الموكلين بها لأن الملائكة تمثل مرتبة من مراتب الوجود مسؤولة عن التدبير وليست هي الحق نفسه.

على ضوء ذلك نفهم أن المعصوم عليه السلام سواء كان نبياً أم إماماً يكون جميع وجوده إلهياً طيباً نورانياً.. ولا توجد فيه جهة ظلمانية.. لأنه ذاكر لله سبحانه بكل وجوده وليس بجزء منه، فيكون مذكراً لغيره.. وهادياً لغيره.. وحجة على غيره!

● الاتصال باللامحدود يورث الاطمئنان والكمال الحقيقي

ولتقريب هذا المعنى من خلال رسم بياني نصور

---

(١) شرح الأسماء الحسنى، صدر الدين القونوي، الاسم (التواب)، ص٣٥١.

دائرتين(١)، الدائرة الأولى تمثل اللامتناهي والـدائرة الثانيـة تمثـل المتناهي وهو الإنسان ثم تتقـاطع الـدائرتان في منطقـة مـشتركة، وتكون هذه المنطقة المشتركة هي جهـة الحـضور والـذكر، أي أن الإنسان حاضر عند الله والله سبحانه حاضر في وجود الإنـسان، أو الإنسان ذاكر لله سبحانه، والله ذاكـر للإنـسان، لكـن عنـدما ننظر لهذه المنطقـة المـشتركة مـن جهـة الإنـسان نـسميها الـذكر الإنساني لله، وعندما ننظر لها من جهة الله سبحانه نسميها الـذكر الإلهي للإنسان، لكنها تبقى منطقة واحدة لا تعدد فيهـا إلا مـن جهة حيثيات الواجب والممكن، وكلما أكثر الإنـسان مـن الـذكر والحضور الإلهي في حياته كلما ازدادت منطقة الاشتراك وبـذلك تزداد الجهـة الطيبـة والنورانيـة في وجـود الإنـسان إلى أن يـصل الإنسان إلى درجة عالية جداً مـن الـذكر الإلهـي فتـدخل دائرتـه كلها في دائرة اللامتناهي.. وهذه مرتبة عظيمة جـداً لا نـستطيع تصويرها بالألفاظ أو المفاهيم الذهنية ولكن يصطلح عليها أهل المعرفة بمرتبة الفنـاء التـام والتـي تـساوق العـصمة والنورانيـة

---

(١) كما في الرسم البياني أدناه، وهو رسم لتقريب الفكرة لا أكثـر، لأن الله سبحانه وتعالى مطلق لا متناهي لا يمكن أن تحيط به الدوائر والرسوم كما هو واضح، فتنبّه.

التامة، ومن جهة أخرى كلما ابتعدت دائرة المتناهي عن دائرة اللامتناهي سوف تنفصل دائرة وجود الإنسان عن دائرة النور والكمال المطلق وبذلك ينطفئ النور الإلهي في حياة الإنسان ويشمله قوله تعالى: ﴿**خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ**﴾(١) .. لا يسمع ولا يعقل ولا يبصر ولا يفقه! صار مخلوقاً أرضياً دنيوياً مائة بالمائة وفقد بصيرته فهو في ظلمات لا مخرج منها، وحسب التعبير القرآني يكون (مطمئناً) للدنيا وليس مطمئناً بذكر الله!

قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾(٢) .

ومن الواضح أن الاطمئنان إلى الحياة الدنيا ليس إلا وهماً يكذبه واقع الدنيا المتغير من حال إلى حال.. بل إن كل من عليها فان.. فكيف يتحقق الاطمئنان بها؟! في حين أن الاطمئنان والاستقرار الحقيقي لا بد أن يستند إلى أمر غير زائل ولا متغير ولا متبدل من حال إلى حال.. وهو الله سبحانه وتعالى.. ويبقى

---

(١) البقرة: ٧.

(٢) يونس: ٧-٨.

وجه ربك ذو الجلال والإكرام! قال تعالى: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[1] والمحصل أن الحياة الدنيا ليست دار استقرار لا للمؤمنين ولا لغير المؤمنين، ومن هنا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[2].

والضنك: هو الضيق من كل شيء، يقال: مكان ضنك، أي ضيق، فالذي يُعرِض عن ذكر ربه وينساه لم يبق له إلا أن يتعلق بالدنيا ويجعلها مطلوبه الوحيد الذي يسعى له ويهتم بإصلاح معيشته والتوسع فيها والتمتع منها، ومن خواص هذه المعيشة الدنيوية أنها لا تسعه سواء كانت قليلة أم كثيرة لأنه كلما حصل منها واقتناها لم ترضَ نفسه بها وسعت إلى تحصيل ما هو أزيد وأوسع من غير أن يقف منها على حد، فهو دائماً في ضيق صدر وحنق مما وجد، ويبقى قلبه متعلقاً بما وراء ما حصل عليه، بالإضافة إلى ما ينزل به من الهم والغم والحزن والقلق والاضطراب والخوف بنزول النوازل من موت ومرض وعاهة وحسد وكيد وخيبة سعي وفراق حبيب.

ولو أنه عرف مقام ربه ذاكراً غير ناسٍ، أيقن أن له حياة

---

(١) الرعد: ٢٨.

(٢) طه: ١٢٤.

عند ربه لا يخالطها موت وملكاً لا يعتريه زوال وعزة لا يشوبها ذلة وفرحة وسروراً ورفعة وكرامة لا تقدر بقدر ولا تنتهي إلى أمد، وأن الدنيا دار مجاز، وما حياتها في الآخرة إلى متاع، فلو عرف ذلك قنعت نفسه بما قدر له من الدنيا من غير ضيق وضنك[1].

فالإعراض عن ذكر الله له نتيجتان – حسب الآية الكريمة– أحدهما دنيوية وهي المعيشة الضنكا، وثانيهما أخروية وهي أن نحشره يوم القيامة أعمى، وكل ذلك من آثار انفصال دائرة المحدود عن اللامحدود والتي يعبر عنها القرآن بالغفلة ونسيان الله سبحانه وتعالى.

ومن أمثلة الاطمئنان إلى الدنيا عندما يحصل الإنسان على المال الكثير، إذ أن بعض أصحاب الأموال يتصورون أن كمالهم الحقيقي في كثرة الأموال فيطمئنون لها .. لكن سرعان ما يصيبهم القلق والاضطراب عندما يسمعون بتقلب سعر العملة وتعاملات البورصة.. حتى يصل الحال ببعضهم أن تصيبه السكتة القلبية ويموت بسبب خسارته المالية! فتراه دائم التفكير ودائم القلق من أجل حماية مكاسبه المالية وتكثيرها.. وهو في

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج١٤، ص٢٢٥.

الحقيقة في همٍ وغمّ واضطراب نفسي مستمر وإن تمتع بشيء من الراحة النسبية في ملذات الدنيا.. ولا يختلف الحال مع أهل الدنيا الآخرين من أصحاب النفوذ والسلطة والسياسة فهم لا يعيشون حياتهم الطبيعية ولا يتنعمون بالاستقرار والاطمئنان النفسي الذي يتمتع به بسطاء الناس من المتوكلين على الله سبحانه أو من الذاكرين لله سبحانه وتعالى وغير المطمئنين للدنيا بل المطمئنين بذكر الله سبحانه الذين يتحدث عنهم القرآن بقوله: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[١]. فمن دون ذكر الله لا ينعم الإنسان بالاطمئنان الحقيقي وتكون حياته مسرحاً للقلق والاضطراب الدائم، ولتأكيد هذا المعنى قرآنياً نذكر بعض الآيات الكريمة التي تصور ذلك الحال بصياغات أخرى مختلفة.

قال تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمْ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾[٢].

والاستحواذ معناه الاستيلاء والغلبة أي يستولي عليهم الشيطان ويغلبهم فلا توجد عندهم جهة اشتراك نورانية طيبة مع الله سبحانه.. فينسيهم ذكر الله، لأن الشيطان قال: ﴿قَالَ

---

(١) يونس: ٦٢.

(٢) المجادلة: ١٩.

فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ﴾(١).. وهو لم يسجد لآدم ولذلك صار عدواً لبني آدم في أصل الخليقة.. فإذا تركوا الله وأعرضوا عن ذكره سوف يستولي عليهم الشيطان وتكون له الغلبة عليهم.

وقال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**﴾(٢).

يعشو: أي يختل بصره ويتعامى فيكون الشيطان له قريناً بسبب تعاميه وإعراضه عن الذكر الإلهي.

---

(١) ص: ٨٢-٨٣.

(٢) الزخرف: ٣٦.

المبحث السابع

• أنا جليس من ذكرني

ذكرنا فيما سبق من الأبحاث أن الله سبحانه وتعالى يذكر الإنسان الذاكر في الملأ الأعلى، أي أن الإنسان يكون له حضور في العالم السماوي العلوي، وفي هذا المجال يمكن فهم الحديث الوارد في كلمات أهل البيت عليهم السلام من أن الله سبحانه قال في مناجاته لموسى عليه السلام: (أنا جليس من ذكرني)، فلو كان الإنسان ذاكراً لله سبحانه وتعالى ذكراً حقيقياً بشروطه التامة سوف يكون الله سبحانه جليسه، لكن الجليس هنا لا يقصد به القرب المكاني وإنما هو نهاية القرب المعنوي، فإننا إذا أردنا أن نبين قرب شخص ما لنا نقول: هذا جليسي، وهو صيغة مبالغة من (فعيل) أي كثير الجلوس معي وأنا كثير الجلوس معه، فهناك جلسة حقيقية بين الذاكر والمذكور وهي أشد وأعظم من الجلسة المكانية بحيث يدرك الإنسان الذاكر شدة القرب من المذكور فيكون جليسه، والله سبحانه يقول: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾[1] لكن

---

(١) الحديد: ٤.

الإنسان لا يدرك هذا القرب أو هذه المعية الإلهية لأنه غافل.. فإذا كان ذاكراً سيتحقق القرب من الطرفين ويكون جليس الله! وفي هذا المجال يمكن تقسيم الذكر الإلهي تقسيماً جديداً يتضح من خلاله مقام (أنا جليس من ذكرني) وهو أن الذكر على أقسام ثلاثة:

الأول: ذكر اللسان المستمد من القلب.

الثاني: ذكر القلب مع عدم حركة اللسان، ويسمى مناجاة الروح، وهذا ذكر الخواص.

الثالث: ذكر السّر، ومعناه غيبة الذاكر في المذكور - في الجملة- فكأن المذكور يكون هو الذكر، وهذا ذكر أخص الخواص.

ولو أضفنا إلى ما ذكروه من الأقسام ذكر عامة الناس الذي يقوم بالجارحة اللسانية فقط من دون استمداد من القلب، تصير الأقسام أربعة، ولعلهم لم يذكروا هذا القسم لتنزههم عن مثل هذا الذكر.

ثم إن ذكر الذاكر إنما يتقوم بحبه للمذكور، ولولاه لم يذكره، والمذكور قد يحب الذاكر، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ

رَحِيمٌ﴾(١)، بل حبه لجميع خلقه مما أثبتته الأدلة العقلية كما برهن في الفلسفة الإلهية وكذلك الأدلة النقلية، فيقع التجاذب في البين لكل من الحبّين وبعد تحقق مراتب الحضور بينهما كيف يتحقق التخالف؟!! لأن ذكر الحاضر من جميع الجهات قبيح!!

قال الشاعر:

أما ترى الحق قد لاحت شواهده

وواصل الكلّ من معناه معناكا(٢)

فعندما يحضر أحدهما عند الآخر تنتفي الإثنينية والتعدُّد بين الذاكر والمذكور فضلاً عن أن يكون أحدهما جليس الآخر! والمهم أن بقاء الجهة الطيبة النورانية عند الإنسان بسبب الذكر الإلهي تترتب عليه جملة من الآثار والنتائج المتعلقة بالمصير النهائي للإنسان أمام الله سبحانه.. ومن جملة هذه الآثار هناك فكرتان ذكرهما سيدنا الشهيد السعيد السيد محمد الصدر قدس سره .. تستندان إلى وجود الجهة الطيبة في وجود الإنسان والتي هي نتيجة الذكر الإلهي.

---

(١) آل عمران: ٣١.

(٢) ينظر مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ج٢، ص٢٠٦.

● **الجهة الطيبة هي سبب الثواب والجهة الخبيثة هي سبب العقاب**

الفكرة الأولى: إن الطاعات إنما تقبل في ميزان العدل الإلهي ويجازى عليها بالخير مع درجة من صفاء النية وطيب القلب ولو كانت ضئيلة جداً، وإلا إذا لم تكن هذه الدرجة موجودة عند الإنسان (يعني بدرجة صفر) لم يكن العمل مقبولاً، فلا يكون له طاعات حقيقية وإن تخيل ذلك لنفسه)[١].

فالله سبحانه يريد أن يعطي الإنسان جزاءه الأوفى من أجل الطاعات التي قام بها في حياته الدنيا، لكن هذه الطاعات لا تنفع وحدها بدون وجود الجهة الطيبة في وجود الإنسان، لأن الله حين إعطاء الثواب للإنسان يريد أن يتصل بالإنسان لكي يصل الثواب تكويناً.. وهذا متعذر مع عدم وجود الجهة الطيبة والنورانية التي ذكرناها، وهذا يعني أن الطاعات المذكورة بدون وجود الجهة الطيبة لا تكون طاعات حقيقية وإن تخيّل الإنسان نفسه أنه مطيع، لأن منبع الطاعات الحقيقي هو صفاء النية وطيبة القلب ومع عدمها لا وجود للطاعة أصلاً. لذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٢] لأن الله سبحانه يتعامل

---

(١) منة المنان في الدفاع عن القرآن: ج١، ص٤٥٣.

(٢) الشعراء: ٨٨-٨٩.

مع قلب الإنسان وباطنه لأنه حرم الله فلا بد أن يأتي به الإنسان سليماً يوم القيامة لكي ينجو ويحصل على الثواب والجزاء الإلهي.

الفكرة الثانية: إن العقاب ليس على هذه الذنوب التي سوف تحصل، بل هو عقاب على سببه ومعدنه وعينه، وهي العين النابعة أو المنبعة للذنوب، وهو سوء السريرة والنفس الأمارة بالسوء، فمهما بقي الفرد على سطح هذه الأرض فإنه يبقى في حالة ذنب وعصيان[1].

إذ بناء على الفكرة الأولى فإن الثواب الإلهي يترتب على الجهة الطيبة في وجود الإنسان، أما هذه الفكرة الثانية فإنها تقول أن العقاب الإلهي لا يترتب على الذنوب بما هي ذنوب، بل هو عقاب لسبب الذنب ومنبعه وهي الجهة الخبيثة الظلمانية من وجود الإنسان أو كما يعبرقُدِّسَ سِرُّهُ سوء السريرة والنفس الأمارة بالسوء، لأن الذنب والمعصية لم يصدرا من الإنسان جزافاً بل لهما أرض خبيثة ينبتان فيها.. وإذا أراد الله سبحانه أن يطهر الإنسان ويزكيه من تبعات الذنوب فلا يكفي قطع هذا النبات الفاسد لأنه سينبت مرة أخرى ويورق من جديد، لأن أرضه ومنبعه ما زال موجوداً.. بل الله سبحانه تنصب عقوبته على النفس الأمارة

(١) منة المنان في الدفاع عن القرآن: ج١، ص٤٩٤.

بالسوء والجهة الظلمانية الخبيثة في وجود الإنسان وهي أرض المعاصي والذنوب.. فهذا هو سبب العقاب الحقيقي.. ومن هنا إذا وجدت الجهة الطيبة عند الإنسان ولو بدرجة ضئيلة من خلال الذكر الإلهي فيمكن حينئذ إعطاء الثواب والسير به نحو درجات التكامل والطهارة الأخرى.. أما مع خبث الذات ورداءة الفطرة فإن ذلك غير ممكن لعدم قابلية القابل وليس النقص في الفاعل.. وبهذا تظهر أهمية الذكر الإلهي في حياة الإنسان سواء في جهة الثواب أم جهة العقاب.

• الذاكر لله مذكّر لغيره

إن أول الخلق والناس الذين يتحقق عندهم المعنى الذي ذكرناه من الحضور والطهارة الإلهية والذكر الحقيقي هم الأنبياء والمرسلون عليهم السلام، ومن أجل وصولهم إلى هذه الدرجة العظيمة من النورانية والحضور الإلهي يبعثهم الله سبحانه لهداية الخلق وتطهيرهم وتزكيتهم وتعليمهم وتذكيرهم، لأن فاقد الشيء لا يعطيه كما ثبت في الفلسفة والعلوم العقلية.. وعليه لا يمكن للإنسان الغافل عن الله سبحانه أن يهدي غيره ويطهره وجودياً.. وكيف للغافل البعيد عن النور الإلهي أن ينير الطريق أمام غيره ليهديه من الضلالة؟!

إذن الأنبياء والمرسلون هم (أكبر الذاكرين) في الكون ولذلك أوكلت إليهم مهمة هداية الخلق أجمعين وإخراجهم من الظلمات إلى النور حسب تعبير القرآن، لأن الذاكر لله نور في نفسه، فهو قادر على أن يأخذ بأيدينا نحن الواقعون في ظلمات الغفلة والنسيان إلى حيث العالم النوراني الإلهي.. فالرسول والنبي له حضور سماوي إلهي تام.. له حضور في الملأ الأعلى، وعندما يوجد معنا في عالم الدنيا لا يتأثر حضوره الإلهي بظلمات هذا العالم بخلاف غيره من باقي الخلق الذين تحيط بهم الشهوات والملذات والأهواء وأوهام الدنيا الفانية، ومن هنا يكون الرسول والنبي حجة على غيره بمعنى الحجة من الناحية التكوينية - بغض النظر عن الاصطلاح العقائدي للحجة- لأن الرسول والنبي والإمام المعصوم لم يفقد نوره وطهارته السماوية بوجوده في نشأة الدنيا، كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام وهو في حالة النزع: (إنما كنت جاراً لكم جاوركم بدني أياماً)!!

فهذه الدرجة التكوينية من الكمال والنورانية والحضور الإلهي هي التي تجعله خليفة لله سبحانه دون غيره.. لأن الإنسان الذي لم يتحقق لديه حضور إلهي في حياته ولم يكن حاضراً في الملأ الأعلى لا يمكن أن يكون خليفة لله، بل يكون ممن استحوذ

عليهم الشيطان والنفس الأمارة بالسوء والهوى والشهوات.. وكل ذلك يتنافى تماماً مع مقام الخلافة الإلهية.

ومن هنا نرى القرآن يخاطب النبي الأكرمصَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ بهذه الآية الكريمة: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾(١).. فهو إمام الذاكرين وقدوتهم فصار مذكراً لغيره من الخلق، إذ من المعلوم أن الغافل لا يمكن أن يكون مذكراً لغيره، فجهة الحضور الإلهي في وجود النبي والرسول هي ما نستطيع تسميتها بـ (الجهة الوحيانية) أي التي يأتي منها الفيض والنور الإلهي.. وهي عند المعصومعَلَيْهِالسَّلَامُ تامة كاملة.. أما عند الناس الآخرين فهي متفاوتة تختلف درجتها من شخص إلى آخر.

فالمعصوم حاضر بجميع مستويات وجوده عند الله سبحانه، وجهته النورانية هي المسيطرة على وجوده.

● ما ينطق عن الهوى

يعبر القرآن الكريم عن أحد أهم آثار الذكر الإلهي التام عند خاتم الأنبياء والمرسلين بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾(٢) فهوصَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ - بسبب حضوره الإلهي

---

(١) الغاشية:٢١.

(٢) النجم: ٣-٤.

التام- لا ينطق عن الهوى.. ولا يفعل عن الهوى.. ولا يأكل عن الهوى.. ولا ينام ولا يمشي عن الهوى.. لأن الهوى منطفئ عنده تماماً.. والنفس الأمارة بالسوء مقتولة تماماً.. فيصبح كل وجوده ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾!! لنتأمل سوية في آيات سورة النجم ونرى كيف تصف الحضور الإلهي للنبي الأكرم ﷺ: قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى*وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى﴾[1] فالآيات تتكلم عن مقامه العظيم وهو حاضر مذكور في الأفق الأعلى ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ في ذلك المقام العظيم الذي توقف فيه جبرائيل وقال لو دنوت أنملة لاحترقت ثم تأتي نتيجة هذا القرب ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ في كل مقام عظيم يريد أن يتحدث به القرآن عن النبي الأكرم ﷺ يأتي بصفة (العبد) ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ فقلبه المبارك هو الذي أدرك هذا المقام العظيم والحضور عند الله سبحانه. ومن المعلوم أن الذي يصل إلى تلك المراتب العظيمة من القرب الإلهي والتي تعجز عن الوصول إليها حتى الملائكة المقربين سوف يكون حجة على الخلق أجمعين وحجة على جميع

---

(١) النجم: ١-٧.

الأنبياء والمرسلين.. ولولا وجوده المبارك لضلّ الخلق أجمعين. وبذلك صار خاتم الأنبياء والمرسلين بناءً على هذا التصوير القرآني للذكر والحضور عند الله سبحانه.

• وحي التشريع ووحي الأفعال

على ضوء ما ذكرناه سوف تكون حياة الأنبياء والمرسلين جميعاً وحياً إلهياً، فهم سلام الله عليهم يوحى إليهم في أقوالهم وأفعالهم، فالوحي قد يكون وحياً تشريعياً كالوحي بتشريع وجوب الصلاة والصيام وغيرها من التكاليف الإلهية، وقد يكون الوحي وحياً أفعالياً، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[1].

فلم تقل الآية: أوحينا إليهم أن افعلوا الخيرات.. أي لم تخاطبهم بالوحي التشريعي.. بل قالت: أوحينا إليهم فعل الخيرات، فالوحي متعلق بأفعالهم مباشرة، أي تكون نفس أفعالهم وحياً من الله، وكذلك قوله: ﴿وَإِقَامَ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾.. ولم يقل: أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة.. بل نفس إقام الصلاة وإيتاء الزكاة هو فعل وحياني إلهي عند الأنبياء

(١) الأنبياء: ٧٣.

والمرسلين، لأن وجودهم إلهي.. بسبب حضورهم عند الله وحضور الله في حياتهم فتكون حياتهم ذات طابع إلهي تام، ولذلك ختمت الآية بقوله: ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾.

قال العلامة الطباطبائي قدس سره: (وأوحينا إليهم فعل الخيرات..) إضافة المصدر إلى معموله (فعل الخيرات) تفيد تحقق معناه في الخارج، فإن أريد أن لا يفيد الكلام ذلك جيء بالقطع عن الإضافة أو بـ (أن) و (أنَّ) الدالتين على تأويل المصدر، فقولنا: يعجبني إحسانك وفعلك الخير، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾[1] يدل على الوقوع قبلاً، وقولنا: يعجبني أن تحسن وأن تفعل الخير وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾[2] لا يدل على تحقق قبلي، ولذا كان المألوف في آيات الدعوة وآيات التشريع الإتيان بـ (أن) والفعل دون المصدر المضاف كقوله: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ﴾[3]، و﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾[4]، ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾[5].

---

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) البقرة: ١٨٤.

(٣) الرعد: ٣٦.

(٤) يوسف: ٤٠.

(٥) الأنعام: ٧٢.

وعلى هذا فقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾... يدل على تحقق الفعل، أي أن الوحي تعلق بالفعل الصادر عنهم، أي أن الفعل كان يصدر عنهم بوحي مقارن له ودلالة إلهية باطنية هو غير الوحي المشرع الذي يشرع الفعل أولاً ويترتب عليه إتيان الفعل على ما شرّع.

ويؤيد هذا الذي ذكرناه قوله بعد ذلك: ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ فإنه يدل بظاهره على أنهم كانوا قبل ذلك عابدين لله ثم أيدوا بالوحي، وعبادتهم لله إنما كانت بأعمال شرعها لهم الوحي المشرع قبلاً، فهذا الوحي المتعلق بفعل الخيرات وحي تسديد وليس وحي تشريع.

فالمحصل أنهم كانوا مؤيدين بروح القدس والطهارة، مسددين بقوة ربانية تدعوهم إلى فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة[1].

فالأنبياء والمرسلون هم مظاهر أسماء الحق في خلقه ولولاهم لغرقت البشرية في ظلمات الضلال والانحراف لأن لهم حضوراً إلهياً سماوياً أصبحوا بسببه حججاً على الخلق أجمعين وهذا أحد أبعاد فلسفة النبوة في الحياة البشرية.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج١٤، ص٣٠٦-٣٠٧.

وعلى ضوء ذلك تبرز عندنا عدة نتائج على مستوى البحث العقائدي منها أن النبي صلى الله عليه وآله يكون أولى بالمؤمنين من أنفسهم كما ينص على ذلك القرآن الكريم.. ومن المعلوم أن أغلى شيء يمتلكه الإنسان في هذا العالم هو نفسه التي بين جنبيه، فكيف صار النبي أولى بها من نفس مالكها؟!! إن ذلك يحصل بسبب أن هذا الوجود المبارك هو خليفة الله في أرضه والله سبحانه خالق النفوس ويريد لها الوصول إلى الكمال والسعادة الحقيقية فيكون خليفة الله مسؤولاً عن هذه النفوس، فيكون أولى بنفوس المؤمنين من أنفسهم، لأن الإنسان الغافل لو تركه الله بدون هادي وذاكر سوف يضلّ نفسه ويسوقها إلى الهلاك ويستحوذ عليها الشيطان حسب تعبير القرآن فيكون النبي أولى بنا من نفوسنا وبحضوره عند الله سبحانه جعلنا ذاكرين لله حاضرين عنده بالإيمان والتقوى والعمل الصالح، لذا يقول القرآن في سورة الجمعة: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[1] فهو صلى الله عليه وآله المعلم والمزكي والمطهر لغيره لأنه مزكى بالتزكية الإلهية ومطهر بالتربية الإلهية.. وهكذا كل مذكّر فإنه يربي الناس ويزكيهم

(١) الجمعة: ٢.

حسب درجته وذكره الإلهي.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة في خطبة له حول قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾[١].

إن الله سبحانه جعل الذكر جلاء للقلوب، تسمع به بعد الوقرة، وتبصر به بعد العشوة، وتنقاد به بعد المعاندة، وما برح لله عزّت آلائه في البرهة بعد البرهة، وفي أزمان الفترات عباد ناجاهم في فكرهم، وكلمهم في ذات عقولهم، فاستصبحوا بنور يقظة في الأسماع والأبصار والأفئدة، يذكرون بأيام الله، ويخوفون مقامه، بمنزلة الأدلة في الفلوات.. وإن للذكر لأهلاً أخذوه من الدنيا بدلاً، فلم تشغلهم تجارة ولا بيع عنه، يقطعون به أيام الحياة، ويهتفون بالزواجر عن محارم الله في أسماع الغافلين، ويأمرون بالقسط، ويأتمرون به، وينهون عن المنكر ويتناهون عنه، فكأنما قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فيها فشاهدوا ما وراء ذلك، فكأنما اطلعوا عيوب أهل البرزخ في طول الإقامة فيه، وحققت القيامة عليهم عداتها، فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا، حتى كأنهم يرون ما لا يرى الناس، ويسمعون ما لا يسمعون[٢].

---

(١) النور: ٣٧.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة، ٢٢٠.

فأهل الذكر كما يقول عليه السلام: يهتفون بالزواجر عن محارم الله في أسماع الغافلين.. لأنهم ذاكرون لله سبحانه ومهمتهم إيقاظ الغافلين عنه سبحانه، ومن الأمثلة على هتاف الذاكرين عن محارم الله .. ما قاله سيدنا الشهيد السعيد محمد الصدر في إحدى خطب الجمعة حيث يخاطب المصلين والناس بقوله: (سوف يقولون لكم هناك – أي يوم القيامة- أني أرسلت لكم السيد محمد الصدر ليقرع أسماعكم فلم ترعوا ولم تهتدوا)(١).

فالسيدقدس سره جاء على لسانه عبارة (ليقرع أسماعكم) وفي عبارة أمير المؤمنين عليه السلام: يهتفون بالزواجر في أسماع الغافلين! وهذا ما يؤكد علوّ مقامه وأنه من الذاكرين المذكرين بالله سبحانه.

---

(١) الجمعة: ٤٥، الخطبة الأولى.

المبحث الثامن

• الذكر الإلهي ومقام الموقنين

قلنا فيما سبق من الأبحاث أننا بصدد أن نرسم صورة واضحة أو نؤسس فكرة كاملة عن الحضور الإلهي في قلب الإنسان ووجوده، وما يعبر عنه القرآن بالذكر.

وفي هذا البحث نحاول أن نعمق هذه الفكرة من خلال الاستناد إلى مجموعة من الآيات القرآنية التي تحدثت عن الذكر الإلهي وبعض آثاره، ومنها:

قوله تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾[1].

تقرر هذه الآية الكريمة أن هناك آيات وعلامات لله سبحانه في الأرض وفي أنفسكم، وتختتم ذلك باستفهام استنكاري (أفلا تبصرون؟) أي: كيف تغيب عنكم ولا تبصرونها وهي حولكم في الأرض التي تعيشون عليها، بل هي

---

(١) الذاريات: ٢٠-٢١.

في أنفسكم؟! فكيف لا يرى الإنسان ما في نفسه؟! ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(١).

فهذه الآيات الأنفسية والأرضية والآفاقية حاضرة عند الموقنين، واليقين هو أعلى درجات الانكشاف عند النفس، ولا يمكن الحديث عن اليقين القلبي والنفسي بدون شيء حاضر في نفوسنا وقلوبنا، أي يكون منكشفاً انكشافاً تاماً فيهما.

فالآيات الروحانية الواقعة في عالم النفوس أي في الباطن والقلب الظاهرة لمن رجع إليها وراقب الله سبحانه فيها هي من آيات الله التي لا يسعها وصف الواصفين - أي لا يمكن أن نرسم لها مفهوماً يصفها على مستوى العلم الحصولي- لأنها آيات وعلامات حقيقية تتحقق في عالم القلب والنفس بمعنى التجلي الباطني لله سبحانه في نفس الإنسان، وبها ينفتح باب اليقين وتدرج المطلع عليها في زمرة الموقنين(٢) فيرى ملكوت السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنْ الْمُوقِنِينَ﴾(٣).

(١) فصلت: ٥٣.
(٢) الميزان في تفسير القرآن: ج٦، ص٦٢.
(٣) الأنعام: ٧٥.

فالذي يحصل على هذا اليقين يرى ملكوت السموات والأرض، أي يرى باطن هذا العالم ويطلع على جانبه الغيبي. وعليه فهذه الآيات بمعنى حضور التجليات الإلهية في نفس الإنسان وباطنه وهي الذكر الإلهي الذي نتحدث عنه في هذا المبحث. فالله سبحانه وتعالى حاضر في الآفاق وفي الأنفس.

● **إن ربك على كل شيء شهيد**

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[1] إذ أن هذا التعبير الذي ختمت به الآية الكريمة يفسر لنا معنى الآيات الأنفسية والآفاقية، فقوله تعالى: ﴿آيَاتِنَا﴾ أي آيات الله سبحانه، وهنا يمكن أن نسأل: كيف نرى هذه الآيات في الآفاق والأنفس؟

يأتي الجواب: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾!

فالله سبحانه على كل شيء شهيد، ومعنى الشهيد هنا: الحاضر المشهود، وهي صيغة مبالغة على وزن (فعيل) وهي بمعنى اسم المفعول أي: المشهود، أي أن الله سبحانه يشاهَد وليس هو يشاهِد.. فالله سبحانه مشاهد مع كل شيء، وهذا معنى أننا سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم.. فهو سبحانه

(١) فصلت: ٥٣.

مشهود جداً لأنه نور السموات والأرض وهو معكم أينما كنتم. ويؤيد ذلك ما روي عن أمير المؤمنينعليه السلام عندما سأله أحد أحبار اليهود: هل رأيت ربك حين عبدته؟ فقالعليه السلام: ويلك ما كنت أعبد رباً لم أره، قال: وكيف رأيته؟ قالعليه السلام: ويلك لا تدركه العيون في مشاهدة الإبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان[١].

وكذلك ما ورد عن أبي بصير عن أبي عبد اللهعليه السلام، قال: قلت له: أخبرني عن الله عز وجل هل يراه المؤمنون يوم القيامة؟ قال: نعم وقد رأوه قبل يوم القيامة، فقلت: متى؟ قال: حين قال لهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى، ثم سكت ساعة ثم قال: وإن المؤمنين ليرونه في الدنيا قبل يوم القيامة، ألست تراه في وقتك هذا؟

قال أبو بصير: فقلت له: جعلت فداك فأحدث بهذا عنك؟ فقال: لا، فإنك إذا حدثت به فأنكره منكر جاهل بمعنى ما تقوله ثم قدر أن ذلك تشبيه وكفر، وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين تعالى الله عما يصفه المشبهون والملحدون[٢].

وفي شرح هذا الحديث يقول العلامة المجلسي: لأن في يوم القيامة يظهر آثار عظمته وكبريائه وملكوته وسلطانه أشد

---

(١) بحار الأنوار: ج٤، ص٤٤، الحديث ٢٣.

(٢) بحار الأنوار: ج٤، ص٤٤، الحديث ٢٤.

الظهور، ويرتفع حجب الشك والأوهام وأستار الجحد والعناد عن القلوب، فما من نفس إلا وهي مذعنة لربوبيته، وموقنة بألوهيته، وخاشعة لعظمته وكبريائه، وصعق من في السموات والأرض، كل أتوه داخرين، وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلماً، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[(١)]، هذا حال غير أوليائه وأصفيائه، وأما عباد الله الصالحون فلهم الدنيا والآخرة سيان فما يرون شيئاً إلا ويرون الله قبله وبعده ومعه بل لو كشف الغطاء ما ازدادوا يقيناً، وبالجملة ما يمنع عن رؤيته وظهور براهين وجوده وشواهد قدرته هو التوغل والانهماك في الماديات وتعلق القلب بالدنيا وزخرفها وإلا فهو ظاهر مشهود، لم يحتجب عن خلقه ولم يمنعهم عن عرفان جماله، ولنعم ما قال زين العابدين عليه الصلاة والسلام: (إنك لا تحتجب عن خلقك إلا أن تحجبهم الآمال دونك)[(٢)].

فالله سبحانه مشهود لجميع الأشياء.. تبصره وتراه الأشياء كلها.. حاضر عندها.. لأنها تدرك فقرها وحاجتها إليه.. كل

---

(١) ق: ٢٢.

(٢) بحار الأنوار: ج٤، ص٤٤.

الممكنات فقيرة إلى الله عز وجل فقر المعلول إلى علته.. وقد ذكرنا في البحث الفلسفي في نهاية الحكمة أن المعلول حاضر عند علتـه لأنها تفيض عليه الوجود فهي محيطة به تكويناً، وكذلك المعلـول يعلم بعلته وهي حاضرة عنده لكن بقدره وحجمه لأنه أقل منها رتبة ووجوداً، فالله سبحانه حاضر في هذه الآفاق والأنفس وكل الوجود مشرق بنوره سبحانه .. لكن ما بـال الإنـسان لا يـدرك هذا الحضور الإلهي؟! أين نحـن مـن قولـه تعـالى: ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؟! هل نرى ربنا مع كل شيء أو لا نراه؟

مما يؤسف له أننا لا تحصل عندنا هذه الرؤية بسبب عمـى القلب الذي هو النافذة لإشراق النور الإلهي في حياة الإنـسان.. وهو حرم الله .. فإذا سودته الذنوب والمعاصي سوف تحجبه عـن حضور الله في وجوده وحياته. وحسب التعبير القرآني: ﴿بَـلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾[١]! ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[٢]! ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَـرَضٌ﴾[٣]! ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[٤]!

---

(١) المطففين: ١٤.

(٢) البقرة:٧٤.

(٣) البقرة: ١٠.

(٤) الحج: ٤٦.

إذن القرآن يصف القلب بـ (العمى) والآية تقول: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا﴾، فكيف تتحقق الرؤية عند الأعمى؟! حينئذ يبتعد عن ذكر الله ويقع في أودية الغفلة والنسيان.

• نحن أقرب إليه من حبل الوريد

ومن الآيات قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾(١)

هذا تشبيه للقرب الإلهي بجهة مادية، فحبل الوريد الموجود في رقبة الإنسان قريب له أشدّ القرب.. لكن الله سبحانه يقول: نحن - أي الله- أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد الموجود في رقبته!! فالله سبحانه أيضاً مشهود وشهيد مع حبل الوريد - لأنه قال: على كل شيء شهيد- فلماذا لا يراه الإنسان وهو بهذا القرب؟! من المؤكد أن ذلك العمى يحصل بسبب الانغماس في عالم المادة ونسيان الله سبحانه والغفلة عنه.

• الله يحول بين المرء وقلبه

ومنها قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾(٢).

فالقلب الحقيقي هو مركز وجود الإنسان وعمق باطن

(١) ق: ١٦.
(٢) الأنفال: ٢٤.

الإنسان وحقيقته الداخلية التي بها يحب ويبغض ويدرك الرضا والسخط وغيرها من المشاعر.. والله سبحانه يقول هنا: أنه أقرب إلى الإنسان بدرجة يحول بينه وبين قلبه!

هكذا يسري الحضور الإلهي في كل مستويات وجود الإنسان وبهذه الدقة والعمق بحيث يحول بين الإنسان ونفسه وقلبه، ومع ذلك يرى الإنسان كل شيء ولكن مع شديد الأسف وبحسب قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[١].. فالله سبحانه شهيد على القلب وشهيد على الوريد، وشهيد على النفس.. شهيد على الباطن والظاهر.. فكل هذه الأجزاء ترى الله سبحانه إلا أنت أيها الإنسان صاحب القلب القاسي! فيكون محصل الآية الكريمة: أن الله يحول بين المرء وقلبه وبين المرء وسمعه ويحول بين المرء وبصره ويحول بين المرء وكل مستويات وجوده ومن هنا كان من الصحيح أن نذكر الله كثيراً لأن الحضور الإلهي سارٍ في جميع شؤون حياتنا ووجودنا.. فلا نجاة إلا بالله سبحانه ولا نور إلا نور الله سبحانه ولا كمال إلا من الله سبحانه ولا سعادة حقيقية إلا بمعرفة الله سبحانه وحضوره وذكره.. وكلما اشتد الحضور الإلهي وسرى في حياتنا كلما صار الإنسان مذكّراً بالله سبحانه وهادياً ومكملاً لغيره.

(١) فصلت: ٥٣.

● **المؤمن مرآة المؤمن**

ومن هنا فسّر العرفاء الحديث المعروف: (المؤمن مرآة المؤمن) تفسيراً آخراً يختلف عن التفسير الظاهري المشهور المعروف بين المتشرعة من أن الإنسان المؤمن يكون مرآة لأخيه المؤمن.. أي يعكس صورة صحيحة وأمينة لأخيه المؤمن إذا نظر إليه. لكن العرفاء يذهبون إلى معنى أعمق من ذلك بناءً على أن (المؤمن) أحد الأسماء الإلهية، فيكون معنى المؤمن مرآة المؤمن، أن المؤمن الأول هو الإنسان والمؤمن الثاني في الحديث هو الله والمحصل: أن الإنسان لا بد أن يكون مرآة لله سبحانه تعكس التجليات والرحمة الإلهية في هذا العالم. وهذا المقام لا يتحقق إلا أن يكون الإنسان ذاكراً لله سبحانه بتمام وجوده فيتحقق عنده الحضور الإلهي ويكون مرآة لله سبحانه.

● **لماذا يكون النظر إلى وجه العالم عبادة؟**

وفي هذا السياق أيضاً نفهم معنى الحديث المعروف: (النظر إلى وجه العالم عبادة) إذ كيف يكون النظر وحده عبادة؟ وكيف نفسر ذلك عقائدياً أو تكوينياً؟

الجواب: إن العالم الحقيقي المقصود بالحديث هو الذاكر لله سبحانه.. أي الذي يتحقق بالحضور الإلهي في نفسه وقلبه وكل

وجوده فيكون مذكراً بالله سبحانه ويكون النظر إليه عبادة مقرِّبة لله عز وجل.

● الإنسان أكبر ذاكر في الكون

بناء على ذلك لا بد أن يكون الإنسان أكبر ذاكر في الكون .. لأنه خليفة الله سبحانه .. وهو الذي قبل هذا الاستخلاف الإلهي ومسؤولية الحضور الإلهي في هذا العالم، كما يقول القرآن: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[١] .

ومن هنا إذا وصل الإنسان إلى هذه المرتبة وحقق مقام الخلافة والذكر الحقيقي سوف يعمر العالم.. لأن الإنسان حينئذ يكون خليفة الله ويسير بالعالم في الصراط الصحيح نحو الكمال، أما إذا ابتعد الإنسان عن الذكر الإلهي - وهو المستخلف من الله- سوف يهلك العالم ويؤول إلى الفساد والخراب، لأن روحه فسدت! قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٢] .

فبسبب انحراف الإنسان وفساده يظهر الفساد في الكون

---

(١) الأحزاب: ٧٢.

(٢) الروم: ٤١.

لأن المخلوقات الأخرى ليست مختارة مثل الإنسان ولا مسؤولة عن العالم كالإنسان الخليفة، فتغييب الحضور الإلهي في الدنيا بسبب غفلة الإنسان وأهوائه وشهواته يؤدي إلى الفساد والظلم، والمقصود هنا الفساد التكويني وهو غير الفساد والظلم الأخلاقي.

● الذكر الإلهي هو صبغة الله

إن من آثار الذكر الحقيقي والحضور الإلهي في حياة الإنسان هو أن تصطبغ حياة الإنسان بصبغة إلهية.. مثال ذلك: أن الله سبحانه هو الرحمن الرحيم، ورحمته وسعت كل شيء فلا بد أن يكون الذاكر الحقيقي رحماناً رحيماً بالآخرين بل رحيماً مع جميع مخلوقات الله الأخرى لأن الله حاضر عنده حسب الفرض من كونه ذاكراً، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[1] فإذا أراد الله أن يرحمنا في هذا العالم فليس عنده إلا هذا الوجود المبارك الذاكر الحاضر عند الله.. المتخلق بأخلاق الله فيرسله رحمة للعالمين.

وهذا هو ما نريد التركيز عليه في بحثنا هنا عن الذكر الإلهي، ولا أريد أن أبتعد عن محور البحث وأستغرق في أننا

---

(١) الأنبياء: ١٠٧.

كيف نسبح وما هو عدد التسبيحات.. بل أريد أن أستغرق بانعكاس الذكر الإلهي على حياتنا بجميع مستوياتها خصوصاً في هذه الأيام التي أصبح فيها الدين غريباً بين الناس.. إذ لا بد أن تصطبغ حياتنا كمؤمنين بصبغة المذكور الحقيقي وهو عز وجل، وبذلك يرتفع الظلم والبغي والفساد بكل ألوانه، نفسياً، أخلاقياً، شخصياً، اجتماعياً، فكرياً، روحياً، قلبياً.. وعليه فلو وجدنا ظلماً أو فساداً ممن يدعي التمسك بالدين فهذا يعني أن الذي يدعي الدين ليس ذاكراً لله حقيقة وإلا لاصطبغ بالصبغة الإلهية في أقواله وأفعاله، لأن غير المتدين يستطيع القول: أني لا أريد الدين لأنه لم يؤثر في حامله فكيف تريده أن يؤثر فيَّ؟!

ومن هنا أكدت الروايات المعتبرة على: أن الدين المعاملة.. وليس كثرة الصلاة والصوم والعبادات الأخرى.. ولم تجعل الشريعة كثرة العبادة مقياساً للتدين والتقوى.. بل جعلت المقياس هو المعاملة مع الآخرين.. لأن المعاملة مع الناس والمخلوقات الأخرى هي التي تظهر فيها آثار الذكر الإلهي في حياتك أيها الإنسان.

فالدين الحقيقي هو مقدار انعكاس الحضور الإلهي في مفاصل ومستويات حياة الإنسان، ومع شديد الأسف أننا نرى في أوساطنا من يصلي ويصوم ويحج بيت الله لكن بمجرد أن

تختلف معه بالمعاملة سيظهر لك أنه كائن آخر غير الذي تعرفه!! استناداً لذلك يتضح أن العبادات الظاهرية إنما تكتسب قيمتها من الحضور الإلهي في قلب الإنسان وباطنه. لذلك وردت الأحاديث عن أهل البيت عليهم السلام محذرة أن يكون المقياس هو كثرة الصلاة والصوم.

منها ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله حيث قال لبعض أصحابه ذات يوم: (يا عبد الله أحبب في الله وأبغض في الله ووال في الله، وعاد في الله، فإنه لا تنال ولاية الله إلا بذلك، ولا يجد رجل طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصيامه حتى يكون كذلك)[١].

وعنه صلى الله عليه وآله: (لا تنظروا إلى كثرة صلاتهم وصومهم وكثرة الحج والمعروف وطنطنتهم بالليل ولكن انظروا إلى صدق الحديث وأداء الأمانة)[٢].

وعنه صلى الله عليه وآله: (من أطاع الله فقد ذكر الله، وإن قلّت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن، ومن عصى الله فقد نسي الله وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن)[٣].

وعن الصادق عليه السلام: (لا تغتروا بصلاتهم ولا بصيامهم،

(١) معاني الأخبار: ص٣٩٩، الحديث٥٨.
(٢) بحار الأنوار: ج٦٨، ص٩، الحديث ١٣.
(٣) الاختصاص: ص٢٤٩.

فإن الرجل ربما لهج بالصلاة والصوم حتى لو تركه استوحش، لكن اختبروهم عند صدق الحديث وأداء الأمانة)[١].

فلا بد للإنسان أن يذكر الله على أي حال وبتعبير القرآن يصطبغ بصبغة الله ومن أحسن من الله صبغة.. والصبغة تعبير قرآني عظيم، يقول عنه السيد السبزواري:

الصبغة: اسم للكيفية الحاصلة من صبغ الشيء، فكما أن للأجسام ألواناً تظهر للبصر، كذلك للنفوس والأرواح ما هو بمنزلة اللون، يظهر لأهل البصائر والبصيرة من بياض وسواد، وصفاء وكدور، ونور وظلمة، وطهارة وخباثة.

وتضاف إلى الله تعالى إذا حصل من الإيمان بالله وما أنزله على رسله والاستسلام لأمره، وإظهار العبودية له عز وجل، وهذا بياض معنوي، بل لمعان أنوار في النفس، بحيث يكون نوراً في ذاته ومنوراً لغيره، ولها مراتب كثيرة ودرجات متفاوتة، فيكون المراد بالصبغة هو العقل الذي يعبد به الرحمن، ويكتسب به الجنان، الذي تجتمع فيه الشرائع الإلهية، المعبر عنها بالفطرة السليمة، وما سوى ذلك ليس من صبغة الله تعالى.

فصبغة الله تعالى هي الطهارة عن كل دنس روحي

(١) بحار الأنوار: ج٦٨، ص٢، الحديث٢.

ومعنوي، ولا يمكن أن تجتمع مع الشرك والكفر والنفاق والرذائل النفسانية، فلا تتأثر بالتقاليد والأهواء والعصبية، وإنما هي من صنع الله تعالى التي تبقى وتدوم وهي المؤثرة في الإنسان في جميع العوالم التي ترد عليه.

وهي التي تميز من كان على الصبغة الإلهية - التي يظهر أثرها الكريم من التوحيد والأخلاق الفاضلة والأعمال الشريفة- من غيرها الذي يكون على الصبغة البشرية التي هي في اضطراب وتعدُّد وتفرُّق.

وبالجملة: صبغة الله ترجع إلى ارتباط العبد مع الله تعالى بنحو ما يشاء الله تعالى ويريده، لا بما يشاؤه العبد ويريده.

ومن ذلك يظهر أن تفسير الصبغة بالإسلام، أو ملة إبراهيم، أو دين الله تعالى، كل ذلك صحيح وينبئ عن شيء واحد، وهو التوجّه إلى الله تعالى والانقطاع عن غيره.

ومن ذلك يظهر أحسنية هذه الصبغة من حيث الذات والمورد والفاعل، فأصل اللون هو التوحيد والإيمان ومكارم الأخلاق، ومورده المؤمن، وفاعله هو الله عز وجل، وغايته السعادة والخلود في الجنان[1].

---

(١) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ج٢، ص٩٥.

المبحث التاسع

• الذكر الإلهي غاية الصلاة

قال تعالى: ﴿وَأَقِمْ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾[١].

في هذه الآية يجعل القرآن الذكر الإلهي غاية للصلاة، وهناك قاعدة تقول: إن الغاية أشرف وأعلى من الوسيلة رتبة، ولذلك جعلت الوسيلة وسيلة لها وطريقة لتحققها، فإن المهم هو الغاية والهدف المطلوب أولاً وبالذات، وعلى ضوء هذه الآية الكريمة فإن الذكر الإلهي أهم من الصلاة لأنه غايتها، والصلاة طريق لتحقق الذكر الإلهي ﴿وَأَقِمْ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾، وإن كانت الصلاة في نفسها مهمة بل هي عمود الدين إن قبلت قبل ما سواها، وإن ردّت ردَّ ما سواها.

بناء على ذلك سوف تحصل عندنا نتيجة حاصلها: أن الذاكر لله دائماً، والمستمر على الذكر في صلاة دائمة، وهناك رواية تدل على هذا المضمون سنذكرها بعد تأسيس هذه الفكرة قرآنياً.

ولو تقدمنا خطوة في هذا المضمون لاستطعنا توسيع هذا

(١) طه: ١٤.

المعنى ليشمل العبادات الأخرى.

فمثلاً إذا كان الإنسان كافاً نفسه عن الشهوات والملذات دائماً فهو صائم دائماً وإن لم يكن صائماً الصوم الفقهي الذي هو الامتناع عن تناول المفطرات المعروفة في الشريعة كالأكل والشرب والنكاح وغيرها.. إذ ما دام ممتنعاً عن ارتكاب الملذات ومحارباً لشهواته فهو في صوم دائم من الناحية المعنوية، لأن أحد حكم الصوم هي قمع شهوات النفس الأمارة وهذا يكون واجباً شرعياً في نهار شهر رمضان كما هو معلوم، لذلك يعبر العارفون بالله من الأولياء أن الدنيا صيام يوم! وهكذا الخاضع والمطيع لله في كل حياته يكون في ركوع دائم، لأن الهدف من الانحناء في الركوع الفقهي هو الخضوع لله سبحانه، فإذا كان الإنسان في كل مسيرة حياته خاضعاً لربه عز وجل فهو راكع دائماً وإن لم يكن في وضع الركوع الفقهي المعروف، وكذلك إذا كان الإنسان متذللاً خاشعاً في حياته سوف يكون في سجود معنوي دائم وإن لم يكن واضعاً جبهته على الأرض.. فهو يأكل ويشرب ويمشي ويقضي حوائج الناس لكنه ساجد معنوياً لأن مسيرة حياته كلها تذلُّل وخشوع لله سبحانه.

• الذاكر لله في ضيافة الله دائماً

وإذا أردنا أن نتقدم خطوة أخرى لتعميق معنى الذكر الإلهي في حياة الإنسان فإن الإنسان الذاكر لله ليس فقط مصلي دائماً بل هو في ضيافة الله في كل لحظات حياته وليس في شهر رمضان فقط، إذ أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال في خطبة استقبال شهر رمضان: (هو شهر دعيتم فيه إلى ضيافة الله) فالإنسان مدعو في هذا الشهر الكريم إلى تلك الضيافة ويجب عليه الصوم شرعاً لتلبية هذه الدعوة والتشرُّف بالضيافة الإلهية، ولولا هذا الواجب الفقهي فمن البعيد أن نأتي باختيارنا إلى ضيافة الله والامتناع عن الأكل والشرب وباقي المفطرات لمدة شهر كامل!!

إن الضيافة الإلهية مفتوحة في كل وقت يريد الإنسان فيه أن يكون ضيفاً عند الله عز وجل باختياره لأن الدعوة الإلهية مستمرة وموجهة إلى الإنسان دائماً، أنظروا إلى التعبير القرآني: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[1] فهذه دعوة مستمرة مقدمة للإنسان لكي يكون في حضرة الله تعالى وضيافته.. أي أن الإنسان إذا كان ذاكراً لله فهو دائماً في ضيافة الله.. هو دائماً جليس الله وليس في شهر رمضان

---

(١) الأنفال: ٢٤.

المبارك فقط.. بل يستأنس بالضيافة الإلهية وتكون كل أيامه أيام الله! وتصبح كل حياته شهور الله.. وسنين الله.. فتكون أنفاسه تسبيحاً.. ونومه عبادة.. لأن الذاكر حاضر عند الله.. والله عز وجل حاضر عنده بمقتضى قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾(١) .. لأن جميع العبادات وسائل للذكر الإلهي في حياة الإنسان حسب قوله تعالى: ﴿وَأَقِمْ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾(٢)، فإذا كانت الصلاة التي هي عمود الدين وسيلة للذكر فما بالك بباقي العبادات!

وفي هذا السياق أيضاً يأتي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾(٣).

أي أن أحد نتائج إقام الصلاة هو الانتهاء عن الفحشاء والمنكر لكنها نتيجة ثانوية بالنسبة إلى شيء أهم وأعظم منها وهو: ذكر الله، ولذلك قالت الآية الكريمة: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾!

قال العلامة الطباطبائي قدس سره: والذكر الذي هو غاية مترتبة على الصلاة أعني الذكر القلبي بمعنى استحضار المذكور في ظرف الإدراك بعد غيبته أو إدامة استحضاره أفضل عمل

---

(١) البقرة: ١٥٢.

(٢) طه: ١٤.

(٣) العنكبوت: ٤٥.

يتصور صدوره عن الإنسان وأعلاه كعباً وأعظمه قدراً وأثراً، فإنه السعادة الأخيرة التي هيئت للإنسان ومفتاح كل خير. ثم إن الظاهر من سياق قوله: ﴿وَأَقِمْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾أن قوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ متصل به مبيّن لأثر آخر للصلاة وهو أكبر مما بيّن قبله، فيقع قوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ موقع الأضراب والترقي ويكون المراد الذكر القلبي الذي يترتب على الصلاة ترتب الغاية على ذي الغاية، فكأنه قيل: أقم الصلاة لتردعك عن الفحشاء والمنكر بل الذي تفيده من ذكر الله الحاصل بها أكبر من ذلك، أي من النهي عن الفحشاء والمنكر، لأنه أعظم ما يناله الإنسان من الخير وهو مفتاح كل خير، والنهي عن الفحشاء والمنكر بعض الخير[١].

فالإنسان إذا كان دائم الذكر فهو دائم الصلاة ودائم العبادة، قال الإمام الباقر عليه السلام: (لا يزال المؤمن في صلاة ما كان في ذكر الله إن كان قائماً أو جالساً أو مضطجعاً لأن الله يقول: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾[٢]..)[٣].

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج١٦، ص١٣٦.

(٢) آل عمران: ١٩١.

(٣) بحار الأنوار: ج٩، ص١٥٢، الحديث ١٠.

وعليه فالمؤمن الذاكر لله إذا كان في صلاة دائمة سوف نفهم قوله تعالى: ﴿إِلاَّ الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ﴾[1]. فإننا حسب النظرة التفسيرية الأولى نفهم من الآية أن الدائم على الصلاة هو المؤمن الملتزم بالصلاة في أوقاتها المحددة شرعاً، ولكن بالنظر إلى مضمون الرواية المتقدمة يظهر أن الدائمين على ذكر الله تعالى.. دائمون في حضرة الله.. دائمون في ضيافة الله.. فهؤلاء يصدق عليهم جميعاً أنهم دائمون في الصلاة وليس في الأوقات المحددة فقط.. فتكون كل حياتهم لوحة إلهية من الطاعة والعبادة والنورانية والحضور الإلهي.

● الذكر الإلهي في كلمات أهل المعرفة

يعتبر بحث الذكر الإلهي من أهم الأبواب التي يبحثها أهل المعرفة في بحوث العرفان سواء النظري منها أم العملي، ولكي يكون البيان الذي ذكرناه في حقيقة الذكر الإلهي تاماً من الناحية المنهجية ولمعرفة عمق الحضور الإلهي في حياة الإنسان نتعرض في هذا المقام إلى ذكر بعض كلمات المحققين في بحث المعرفة الإلهية حول حقيقة الذكر.

---

(١) المعارج: ٢٢-٢٣.

• ما ذكره عبد الرزاق القاساني

قال في شرح منازل السائرين:

الذكر الحقيقي وهو شهود ذكر الحق إياك – أي أن الذكر الحقيقي ليس شهود ذكرك للحق سبحانه وتعالى، وليس شهود ذكرك أنت للحق، بل هو شهود ذكر الحق إياك– والتخلص من شهود ذكرك – لأن شهود ذكرك يعني أنك ما زلت ترى نفسك وترى لنفسك ذكراً– وهذا هو الذكر الحقيقي حسب الاصطلاح العرفاني.

ثم قال: ومعرفة افتراء الذاكر في بقائه مع ذكره – أي أن الذاكر الحقيقي الذي يصور نفسه باقياً حين الذكر فهو مفتري! فعندما يشاهد ذكر الحق إياه يعرف أنه مفترٍ! لأن الذكر الحقيقي يقتضي أن لا يرى الذاكر ذكره ولا يرى لنفسه وجوداً–.

ثم قال: وهو اتحاد الذاكر والمذكور والذكر – فالذكر الحقيقي في النظرة العرفانية الذي هو أعلى درجات الذكر تكون حقيقته أن يكون الذاكر والذكر والمذكور شيئاً واحداً لا إثنينية ولا تعدد حقيقي فيه، وهذا المعنى هو الذي كنا نقصده في تفسير قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾–.

ثم قال: وهو ذكر الحق نفسه وذاته.. وبهذا يمكن

التخلص من شهود الذكر المنسوب إلى العبد، فإن نسبة الشهود إليه زور وافتراء، إذ لا وجود للعبد، فلا شهود ولا ذكر..

ويمكن أن يكون لقوله: (شهود ذكر الحق إياك) وجه آخر هو آخر مراتب أهل النهاية وأرفعها، وهو مرتبة البقاء بعد الفناء، وهو أن يذكرك بإيجاده إياك بوجوده، فتكون موجوداً بالحق في الحق[(١)].

● ما ذكره ابن عربي

قال في الفتوحات المكية في معرفة مقام الذكر وأسراره:

ثم إن الله ما وصف بالكثرة شيئاً إلَّا الذكر، وما أمر بالكثرة من شيء إلَّا من الذكر، قال: ﴿**وَالذَّاكِرِينَ اللّٰهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ**﴾[(٢)] وقال: ﴿**اذْكُرُوا اللّٰهَ ذِكْراً كَثِيراً**﴾[(٣)]، وما أتى الذكر قط إلا بالاسم (الله) خاصة معرى عن التقييد، وقال: ﴿**وَلَذِكْرُ اللّٰهِ أَكْبَرُ**﴾[(٤)]، وقال: ﴿**وَاذْكُرُوا اللّٰهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ**﴾[(٥)].

---

(١) شرح منازل السائرين: عبد الرزاق القاساني، ص٤٦٦.

(٢) الأحزاب: ٣٥.

(٣) الأحزاب: ٤١.

(٤) العنكبوت:٤٥.

(٥) البقرة: ٢٠٣.

وقال صلى الله عليه وآله: لا تقوم الساعة حتى لا يبقى على وجه الأرض من يقول: الله الله – أي لا تقوم الساعة ما دام هناك ذاكر حقيقي لله سبحانه بمعنى انتفاء الذكر الإلهي الحقيقي من هذه النشأة– فما قيده بأمر زائد – فقط الله– لأنه ذكر الخاصة من عباده الذين يحفظ الله بهم عالم الدنيا وكل دار يكونون فيها! – أي أن هؤلاء الذاكرين الحقيقيين يحفظ الله بهم كل دار أو نشأة يحلون فيها– فإذا لم يبقَ في الدنيا منهم أحد لم يبقَ للدنيا سبب حافظ يحفظها الله من أجله فتزول وتخرب... وكم من قائل (الله) باقٍ في ذلك الوقت ولكن ما هو ذاكر بالاستحضار الذي ذكرناه – أي يذكر الله فقط باللسان وليس بالاستحضار القلبي الحقيقي، فلا تكون هناك قيمة لذكره في حفظ الدنيا–[1].

● ما ذكره داود القيصري

قال في شرح فصوص الحكم في الفصّ اليونسي:

وما أحسن ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (ألا أنبئكم بما هو خير لكم وأفضل من أن تلقوا عدوكم، فتضربوا رقابهم ويضربوا رقابكم؟ ذكر الله) أي: ذكر الله أفضل من الغزو في سبيل الله ومن الشهادة فيه..

(١) الفتوحات المكية: ج٣، ص٢٦٦، طبعة دار صادر.

والمراد بالذكر المطلوب من العبد أن يذكر الله باللسان، ويكون حاضراً بقلبه وروحه وجميع قواه، بحيث يكون بالكلية متوجهاً إلى ربه، فتنطفئ الخواطر وتنقطع أحاديث النفس عنه، ثم إذا داوم عليه ينتقل الذكر من لسانه إلى قلبه، ولا يزال يذكر بذلك حتى يتجلى له الحق من وراء أستار غيوبه فينور باطن العبد بحكم ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾[1] ويعده إلى التجليات الصفاتية والأسمائية ثم الذاتية، فيفنى العبد في الحق، فيذكر الحق نفسه بما يليق بجلاله وجماله، فيكون الحق ذاكراً ومذكوراً وذكراً بارتفاع الثنوية وانكشاف الحقيقة الأحدية.

ثم ينتقل إلى بيان ذكر الأبدان وما فيها من الأعضاء فيقول:

وكل ذاكر لربه بلسان يختص به، فإن ذكر الله سارٍ في جميع العبد، روحه وقلبه ونفسه وجميع قواه الروحانية والجسمانية بل في جميع أعضائه.

وفي هذا المقام يذكر صاحب الفصوص وشارحها إشارة لطيفة تختص بذكر أعضاء البدن، حيث يقول: إن من يذكر الله بلسانه فقط، فإنَّ الحق سبحانه لا يكون في ذلك الوقت إلا جليس اللسان خاصته، فيراه اللسان من حيث لا يراه الإنسان،

---

(١) الزمر: ٦٩.

ومعنى ذلك أن اللسان يرى الله بالبصر الذي يخصه لأنه ذاكر لله ولا يراه الإنسان من حيث روحه وقلبه لغفلته! ثم يقول: فافهم هذا السر في ذكر الغافلين، فالذاكر - الذي هو اللسان- حاضر عند الله بلا شك، والمذكور جليسه فهو يشاهده، أي أن اللسان الذاكر لله يشاهد الحق.. والغافل من حيث غفلته ليس بذاكر، فليس الحق جليس الغافل، فالحق جليس الجزء الذاكر من الإنسان، وجزؤه الآخر متصف بالغفلة عن الذكر ولا بد أن يكون في الإنسان جزء يذكر ربه ويكون الحق جليس ذلك فيحفظ باقي الأجزاء بالعناية، كما يحفظ العالم بوجود الكامل الذي يعبد الله في جميع أحواله لذلك لا تخرب الدنيا ولا يستأصل ما فيها ما دام الكامل فيها، أو من يقول: الله .. الله كما جاء في الحديث الصحيح.

فكذلك وجود العالم الإنساني لا يخرب ولا يفنى، ويكون محفوظاً بالعناية الإلهية ما دام جزء منه ذاكراً للحق[1].

ويظهر من هذا الكلام أن حفظ النظام الوجودي في عالم الإمكان لا يتم إلا بوجود الإنسان الكامل الذي نصطلح عليه في العقيدة الإمامية بالإمام المعصوم والحجة على الخلق.

---

(١) شرح فصوص الحكم، داود القيصري: ج٢، الفصّ اليونسي.

• وقفة مع مناجاة الذاكرين

نتوقف قليلاً وبصورة مختصرة عند فقرات المناجاة المعروفة بمناجاة الذاكرين المنقولة في كتب الأدعية والزيارات تتميماً للبحث في موضوع الذكر.

(إلهي لولا الواجب من ذكرك لنزهتك عن ذكري إياك)

ذلك لأن الإنسان الموجود في عالم الدنيا محدود بحدوده الضيقة الملازمة لعالم الفناء والزوال، فكيف يذكر ويحضر اللامحدود والمطلق في جميع الجهات في صفاته العليا وأسمائه الحسنى.. ولكن حيث أن الله سبحانه قال: ﴿**ذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً**﴾، وهذا أمر إلهي بالذكر.. ولولا هذا الأمر الإلهي لنزهنا الله سبحانه عن ذكرنا له حفظاً لكمال قدسه عز وجل.

(على أن ذكري لك بقدري لا بقدرك)

هذا بناء على ما ذكرناه في بحوث سابقة من أن المعلول يعلم بعلته ويدركها بقدره هو لا بقدرها ويستحيل أن يعلم ما وراء ذلك، وعليه فإن ذكرنا لله سبحانه بقدرنا لا بقدره، كما قال الخاتمصلى الله عليه وآله: (ما عرفناك حق معرفتك).

(وما عسى أن يبلغ مقداري حتى أجعل محلاً لتقديسك)

هذا حال الإنسان الحقيقي ولسانه المقرّ بالحاجة والفقر لله

سبحانه وتعالى، فيعترف أن كونه محلاً لتقديس الله وذكره هو شرف له ما بعده شرف.. وكمال ما بعده كمال.. إذ كيف يكون المحدود الفقير المحتاج في كل جهات وجوده محلاً لتقديس وذكر اللامحدود الغني المطلق في كل جهات وجوده؟!

ولذلك قال بعد هذه الفقرة:

(ومن أعظم النعم علينا جريان ذكرك على ألسنتنا وإذنك لنا بدعائك وتنزيهك وتسبيحك)

وكيف لا يكون ذلك من أعظم النعم ونحن نذكر الله بهذه الألسن القاصرة المقصرة المتقذرة بالمعاصي والذنوب كالغيبة وأكل الشبهات.. وتذوق الطيبات بغير ما يرضي الله عز وجل.

(إلهي فألهمنا ذكرك في الخلاء والملاء والليل والنهار والإعلان والإسرار وفي السراء والضراء)

أي أن ذكرنا إياك ليس بفضل منّا وإنما هو إلهام منك يا الله.. فنحن دائماً وفي كل الأحوال ببركة هذا الإلهام الدائم والرحمة المستمرة.

(وآنسنا بالذكر الخفي) و (استعملنا بالعمل الزكي والسعي المرضي) و (جازنا بالميزان الوفي)

(إلهي بك هامت القلوب الوالهة) لأنك لك الأسماء

الحسنى والصفات العليا التي تهيم بها القلوب التي تحب الكمال وتكون والهة به.

(وعلى معرفتك جمعت العقول المتباينة)

العقول متباينة في درجات ومراتب الإدراك ولكن يجمعها إدراك النور الإلهي الواحد.. فهي مجتمعة وواحدة لأنها تذكر الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا شريك له.

(فلا تطمئن القلوب إلا بذكراك)

هذا بمقتضى قوله تعالى: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[1].

(ولا تسكن النفوس إلا عند رؤياك)

هذا بمقتضى قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[2].

(أنت المسبح في كل مكان)

هذا بمقتضى قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾[3].

(والمدعو بكل لسان)

---

(١) الرعد: ٢٨.

(٢) فصلت: ٥٣.

(٣) الجمعة: ١.

اللسان التكويني لجميع الموجودات الفقيرة المحتاجة.. فهي تدعوه سبحانه طلباً لكمالاتها ولوازم وجودها.

(والمعظم في كل جنان)

أي أن جميع بواطن الموجودات تدرك عظمة الله سبحانه وإن كانت ظواهرها على خلاف ذلك في بعض الأحيان.

(وأستغفرك من كل لذة بغير ذكرك، ومن كل راحة بغير أُنسك)

هذا بمقتضى أن التلذذ بالدنيا من دون ذكر الله سبحانه ذنب يجب الاستغفار منه، فاللذة الدنيوية بغير ذكر الله انقطاع عن النور والطهارة والكمال الإلهي وسقوط في الظلمات وهو من أعظم الذنوب المعنوية التي تستدعي الاستغفار والتوبة.

وكذلك الحال في الراحة الدنيوية من دون ذكر الله عز وجل.. فإن الاستئناس بها كذلك وهم وسقوط في ظلمات الشهوات والأهواء، وهي ليست راحة حقيقية بل ستكون عاقبتها الهم والحزن والضيق بسبب الإعراض عن ذكر الله والانقطاع من منبع النور والكمال والسعادة الحقيقية، قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**﴾[1].

---

(١) طه: ١٢٤.

(وأستغفرك من كل سرور بغير قربك)

بمقتضى أن الفرح والسرور الذي لا يقرّب إلى الله سبحانه ليس فرحاً وسروراً في حقيقته بل هو ذنب وخطيئة يجب الاستغفار منها.. وهو وهم سرعان ما يزول لأنه مستند إلى الأسباب الدنيوية الزائلة.. وأما السرور الحقيقي فهو الفوز برضوان الله سبحانه والقُرب من ساحة قدسه، ومن هنا ورد في الحديث: (أن كل يوم لا يعصى الله فيه فهو عيد).

(ومن كل شغل بغير طاعتك)

جميع أعمال الإنسان التي لا تقع في طريق الطاعة والقُرب من الله عز وجل تعتبر ذنوباً معنوية ينبغي الاستغفار منها لأن الله سبحانه هو مصدر الكمال ومنبع الفيوضات الوجودية والكمالية ولا بد أن يكون العبد المؤمن متقرباً إليه سبحانه في جميع أعماله ومشاغله، ومن هنا ورد استحباب أن يجعل الإنسان جميع ما يقوم به قربة إلى الله تعالى.

(إلهي أنت قلت وقولك الحق: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[1]).

هاتان الآيتان الكريمتان هما محور البحث في موضوع

---

(١) الأحزاب: ٤١-٤٢.

الذكر الإلهي وقد تقدم الكلام فيهما.

(فأمرتنا بذكرك)

لأن الفعل (أذكروني) فعل أمر ظاهر في الوجوب.

(ووعدتنا عليه أن تذكرنا، تشريفاً لنا وتفخيماً وإعظاماً وها نحن ذاكروك كما أمرتنا فأنجز لنا ما وعدتنا)

هذا محصل قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[1] فالوعد الإلهي هو ذكره لنا سبحانه. يا ذاكر الذاكرين ويا أرحم الراحمين.

(١) البقرة: ١٥٢.

المبحث العاشر

• الحسين عليه السلام الذكر الإلهي الأكبر

يأتي هذا البحث نزولاً عند رغبة بعض الإخوة الحضور الأفاضل في ربط بحث الذكر الإلهي بسيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام، ولبيان العلاقة الجوهرية بين الحسين عليه السلام وبين حقيقة الذكر الإلهي نحتاج إلى بيان مجموعة من المقدمات القرآنية والعقائدية وصولاً إلى النتيجة المطلوبة.

• المقدمة الأولى: النبي الأكرم هو أكبر آية مذكِّرة بالله عز وجل

لا شك أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله هو أكبر آية مذكِّرَة في هذا الكون بالله سبحانه وتعالى، ورسالته الخاتمة هي أعظم الرسالات تذكيراً بالله عز وجل، وتستند هذه الحقيقة إلى مقامة العظيم في القرب من الله سبحانه، والذي تحدثنا عنه في البحوث السابقة.

ومن دلائل هذا المقام العظيم أننا عندما نقرأ القرآن نجد أن الله سبحانه يتكلم بلسان النبي صلى الله عليه وآله، بمعنى أن النبي عندما يتلو القرآن علينا فإنه يتلوه بلسان الله لا بلسانه هو، فهو لا يقول مثلاً: قال ربكم أقيموا الصلاة.. بل يأتي الخطاب الإلهي على

لسانه مباشرة: يا أيها الذين آمنوا...

بـل نـرى حتـى في الخطابـات القرآنيـة الخاصـة بـالنبي والموجهة إلى شخصه مباشرة، فنراه يقول: يا أيها النبي!! ويا أيهـا الرسول!! في حين هو المتكلم وهو المخاطب بنفس الوقت.. فهو ينقل الخطاب الإلهـي بلـسانه المبـارك مبـاشرة.. وهـذا بخـلاف الرسالات السماوية الأخرى فلم يكن عيسى عليه السلام ينقـل الـوحي الإلهي بهذه الطريقة، بل كـان يقـول للحـواريين: قـال ربكـم.. ولذلك تعتبر هذه الحالـة خاصـة بـالنبي الخـاتم صلى الله عليه وآله، فالآيـات القرآنية جميعاً هي خطابات إلهية مباشرة جاءت على لسان النبـي الأكرم صلى الله عليه وآله .. وعليه فلو نادانا النبـي فقـد نادانـا الله سـبحانه.. لأن المنادي الحقيقي هو الله عز اسمه.. وقد ذكرنـا أن ذلـك مـن نتائج وآثار المقام الذي وصله النبي في القرب من الله عز وجل.

بناءً على ذلك فإننا عندما نتحدث عن نـداءات القـرآن ومنهـا نداء الذكر الإلهي فمن الضروري منهجياً أن نعرف منزلـة الـشخص الذي نزل عليه القرآن وهو صاحب الرسالة الخاتمة، وذلك من خلال معرفة مراتب القرآن، وهو البحث الذي تتكفله المقدمة الثانية.

- **المقدمة الثانية: معرفة مراتب القرآن**

إن القرآن له عدة مراتب من الناحية الوجودية، منها:

أولاً: مرتبة القرآن المقروء باللسان وهي ما يسمى بالمرتبة اللفظية للقرآن.

ثانياً: مرتبة القرآن المكتوب، ونعني بها القرآن المكتوب في المصحف الشريف وهي مرتبة مادية للقرآن.

ثالثاً: مرتبة القرآن الذهنية والقلبية، وهي مفاهيم ومضامين القرآن التي نحفظها في أذهاننا وقلوبنا، فتسمى المرتبة المعنوية أو القلبية عند الإنسان.

ولكل من هذه المراتب الثلاثة آثار ونتائج تترتب عليها، ففي مرتبة القرآن المكتوب لا يجوز مس المصحف من غير طهارة.. وكذلك يجب وضعه في مكان محترم ولائق ولا يجوز التعامل معه بما يلزم منه الهتك والإهانة لكتاب الله.

لكن من لوازم هذه المرتبة المادية هو إمكان التعدي عليها من قبل الذين لا يؤمنون بالقرآن، فهناك من مزق المصحف الشريف.. وهناك من رماه بالسهام كما هو معروف تاريخياً.

وفي المرتبة اللفظية للقرآن يلزم قراءة آيات القرآن بالصورة الصحيحة التي تحفظ مقاصد ومرادات القرآن.. ويستحب أن يكون قارئ القرآن على طهارة من الحدث وغيرها من أحكام تلاوة القرآن الكريم.

فكل مرتبة من هذه المراتب لها لوازم وآثار خاصة تتلاءم مع مرتبتها الوجودية. ولا بد أن نشير إلى أن مراتب القرآن في الحقيقة مراتب كثيرة جداً بحسب النشآت الوجودية التي يوجد فيها القرآن وما ذكرناه في المراتب الثلاثة إنما هو من باب المثال فقط.. وأن هذه المراتب جميعاً ترجع في أهميتها وقيمتها وشرفيتها إلى مرتبة القرآن الحقيقي، ولولا ذلك القرآن الحقيقي لما كان لهذه المراتب أي قيمة سواء لفظياً أو كتبياً أو معنوياً أو شيئاً آخر. والسؤال المهم هنا: ما هو أو من هو القرآن الحقيقي؟ ما هي حقيقة تلك المرتبة من الناحية الوجودية والتكوينية؟ والجواب:

رابعاً: مرتبة القرآن الحقيقي، وهي بشكل مختصر عبارة عن الوجود المبارك والحقيقي للنبي الأعظمﷺ لأنه هو المذكر حقيقة، ووجوده وجود القرآن الحقيقي، ونوره نور القرآن الحقيقي، وأفعاله وأيام حياته ومراتب وجوده في كل العوالم هي آيات وصفحات القرآن الحقيقية، وهي المذكرة والمزكية والمربية والمعلمة للخلق أجمعين.

ولتقريب هذا المعنى نذكر المثال التالي:

إن الرسالة العملية لأي مرجع من المراجع لا تؤثر على المقلدين وتبعثهم على الأعمال الصالحة والالتزام بأحكام الشريعة

بما هي ورق مطبوع ومزيّن بغلاف مذهب مثلاً.. كلا، بل إن تأثير الرسالة العملية في المكلف إنما يتحقق من حيثية انتسابها للمرجع المجتهد المربّي المذكر المصلح.. ولذلك لو قطعت الرسالة العملية عن وجودها الحقيقي الذي هو المرجع الجامع للشرائط ستكون عبارة عن مجموعة من الوريقات المطبوعة الموجودة على رفوف المكتبة.

وكذلك الحال في القرآن فإن مرتبته الورقية المكتوبة وجميع مراتبه الأخرى إذا قطعناها عن وجودها الحقيقي وواقعها التكويني سوف ينعدم تأثيرها في سلوك الإنسان وحياته العملية.. وقد تعرضنا لذلك في بحث هجر القرآن وقلنا إن بعض الناس يوجد عندهم في البيت نسخ كثيرة من المصحف الشريف.. ولعلهم يتلون القرآن كل يوم لكن واقع حياتهم أبعد ما يكون من القرآن.. وليس سبب ذلك إلا انفصال مرتبة القرآن المكتوبة والمقروءة عن مرتبته الحقيقية المؤثرة.. فصار عندهم القرآن مجرد ورق مطبوع بطبعات راقية يوضع في البيوت للتبرك والزينة.. ولذلك يقوم بعض الملوك والرؤساء بكتابة أسمائهم على المصحف الشريف ويجعلونه هدية يتداولونها بينهم!! فهل هذا هو القرآن الذي لا يمسه إلا المطهّرون؟! بالطبع كلا..

استناداً لذلك يتضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾[1]. فالقرآن في الكتاب المكنون، والكتاب المكنون مرتبة من مراتب القرآن العليا، ومن صفات هذا الكتاب المكنون أنه ﴿لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾[2] بناء على أن (لا) هنا نافية حسب مشهور المفسرين، أي تنفي حصول المسّ لغير المطهرين.

فذلك القرآن الكريم الموجود في الكتاب المكنون لا يمكن أن يدركه أو يحيط بمعانيه أو يصله إلا من حاز مرتبة الطهارة الحقيقية من الله سبحانه، وهو الإنسان الواصل إلى مرتبة المطهّر مطلقاً، أي مطهراً مخلصاً من القذارات والنجاسات بجميع مستويات وجوده، روحياً، وقلبياً، ونفسياً، وعقلياً، وغيرها، فهذا الإنسان هو القادر على مسّ الكتاب المكنون أي يدركه ويتصل به تكويناً.

وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[3] أي أن هذا القرآن النازل جعلناه لكم عربياً.. بصفة كونه كلاماً مقولاً ومقروءاً باللغة العربية لعلكم تعقلون..

---

(١) الواقعة: ٧٧-٧٨.

(٢) الواقعة: ٧٩.

(٣) الزخرف: ٣.

فهذه أيضاً مرتبة أخرى متنزلة من القرآن وهي كونه (عربياً) ثم قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[1] وهذه مرتبة أخرى من المراتب العليا غير المرتبة السابقة، فهذا القرآن موجود في أم الكتاب لدى الله سبحانه (لدينا) وليس (لديكم) وهو في هذه المرتبة عليّ، أي من العلو والسّمو، و(حكيم) أي كتاب أحكمت آياته لا يوجد فيه متشابه أصلاً، وهو في أم الكتاب لا يتصف بكونه عربي أو غير عربي بل هو عليٌّ حكيم فقط.

وبناء على المقام الذي نؤمن به للنبي الخاتمﷺ في القرب الإلهي والذي أوضحناه في بيان آيات سورة النجم في البحوث السابقة فإن النبي الأعظم قد وصل إلى مقام (أم الكتاب) ومقام (عليٌّ حكيم) وهو مقام الكتاب، الكتاب المكنون الذي لا يمسُّهُ إلا المطهرون.. وصار هو القرآن المكنون في تلك المرتبة العظيمة، وعندما تمت له هذه المرتبة وصار قرآناً بنفسه بعثه الله سبحانه رسولاً ونبياً ورحمة للبشرية والناس أجمعين.

فحقيقة القرآن والكتاب والرسالة الخاتمة هي نفس وجود النبي الأكرمﷺ وهو الذي يهدينا ويزكينا ويعلمنا ويذكرنا بالله وهو الذي يوصلنا إلى الحياة والسعادة الحقيقية.

---

(١) الزخرف: ٤.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾(١) فوجوده هو المزكّي والمطهِّر والمعلِّم.

وفي هذا القرآن الحقيقي والمرتبة العظيمة تربّى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فصار قرآناً ناطقاً وحجة ووليـاً وخليفة لله عز وجل وهو الامتداد الحقيقي والتكويني لهذه المرتبة من مراتب الرسالة الخاتمة.

ولذلك نرى أن هذا المصحف المكتوب تستدل به جميع الفِرَق والمذاهب الإسلامية على أفكارها واتجاهاتها بالرغم من تنافيها واختلافها، ففي علم الكلام يستند المعتزلة إلى القرآن لإثبات صحة أفكارهم.. ويستند الأشاعرة إلى القرآن كذلك، وهكذا المذاهب الأخرى وهي مذاهب واتجاهات مختلفة فيما بينها بل متنافية في كثير من مضامينها وأسسها الرئيسية، فما هو سبب ذلك؟

الجواب: بكلمة مختصرة هو الابتعاد عن القرآن الحقيقي الذي أحكمت آياته! والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لأنه حق في حق، ونور في نور، وكمال في كمال.. وكله

(١) الجمعة:٢.

محكم.. وبه يخرج الناس من الظلمات إلى النور، وهذا يعني أن الفِرَق والمذاهب تتقاتل على قرآن آخر بعد انقطاعه وفصله عن مرتبته الحقيقية الهادية المحكمة.

ولعل من أبرز الأمثلة الواضحة في التاريخ الإسلامي على ذلك هو قضية رفع المصاحف من قِبَل جيش معاوية وعمرو بن العاص والمناداة: إنِ الحكم إلا لله!! لكن أين هو حكم الله؟! أليس هو القرآن الناطق المتمثل بعلي بن أبي طالب؟! وهو خليفة النبي ونفس النبي ووصيه، فما هي إذن قيمة هذا المصحف والورق المرفوع على رؤوس الرماح؟! الذي يمسكه أمثال معاوية وعمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري؟!

● **المقدمة الثالثة: ضرورة استمرار أن تكون الرسالة الخاتمة (مُذكِّرَة)**

بناء على تأثير المرتبة الحقيقية للقرآن فلا بد أن تستمر الرسالة الخاتمة في تذكيرها الحقيقي إلى يوم القيامة، إذ لو لم يستمر التذكير الحقيقي – وليس اللفظي والقولي- سوف تنقض صفة وفلسفة الخاتمية الثابتة لها.. لأن القرآن الحقيقي هو الشيء الوحيد الذي يهدي الناس ويتكاملون به نحو الله سبحانه، فلا بد أن يستمر تذكيره ووجوده الحقيقي بين الناس إلى يوم القيامة.

بعبارة أخرى: ضرورة وجود مذكِّر حقيقي يمثل هذه

الرسالة في كل زمان، ومن صفات هذا المذكِّر أنه تربّى وتزكّى حقيقة في الرسالة الخاتمة فيصبح قرآناً في نفسه يهدي ويزكّي ويربّي ويصلح، فلا بد من وجود (المذكِّر الحقيقي) الذي نسميه في البحث العقائدي (الإمام المعصوم) و(حجة الله على خلقه) و(خليفته في أرضه)، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾[1]!

● **المقدمة الرابعة: انحراف الأمة في زمن بني أمية**

إن الانحراف الذي أصاب الأمة الإسلامية في زمن بني أمية كان بدرجة هائلة كادت أن تؤدي إلى انحراف منهج الرسالة الإلهية الخاتمة بالكامل، فيزيد الذي يسمى (أمير المؤمنين) هو شارب خمر وفاجر بضرورة التاريخ.. وبعض الولاة كانوا يقربون الصلاة وهم سكارى! وبعضهم يرمون المصحف الشريف بالسهام! كما هو معلوم.. إن هذا الانحراف بدرجة لا يمكن أن تحيط به العبارات، فدخلت الأمة في غفلة وسبات عميق باسم الرسالة الخاتمة لأن يزيد كان يدّعي أنه خليفة المسلمين! وهو خليفة رسول الله حسب ادّعائه، فكانت الأمة تعيش الفساد والظلم والانحراف بهذا الحجم الهائل..

على ضوء ذلك وحسب المعادلة الإلهية احتاجت الأمة

---

(١) الغاشية: ٢١.

صاحبة الرسالة الخاتمة إلى (تذكير) أو (مذكِّر) يعادل حجم الانحراف والفساد المذكور، لكي يمكنه الوقوف بوجهه والعودة بالرسالة إلى صراطها القويم.. ولا يكفي الوعظ والتذكير بدرجته القليلة.. بل لا بد من هزّة عظيمة تحدث في كيان هذه الأمة لكي تصحو من غفلتها العميقة وتعود إلى التذكير وهداية الخلق أجمعين.

● **المضحي الأعظم والمذكِّر الأكبر**

وفي هذه المرحلة يواجهنا سؤالان:

السؤال الأول: من الذي يقوم بهذا الدور، ويستطيع أن يصلح فساداً وانحرافاً بهذا الحجم؟ ويقيم الرسالة الخاتمة؟ وما هي مواصفات من يقوم بهذه المهمة العظيمة؟

السؤال الثاني: ما هو الثمن المطلوب لتحقيق هذا النوع من التذكير الإلهي؟ إذ لا بد أن يكون ثمناً باهضاً جداً ينتج الإصلاح في جسد هذه الأمة التي نخرها الفساد في عمق مقدساتها.

أما جواب السؤال الأول: إن من يقوم بهذا الدور لا بد أن يكون هو قرآناً ناطقاً لكي يستطيع تحمُّل مسؤولية الهداية والتزكية والتكامل الحقيقي نحو الله سبحانه، وإلا فمن غير

الممكن تكويناً أداء هذه المهمة.

هذه المهمة قبلها الإمام الحسين عليه السلام، ومن الواضح أن تاريخه المبارك قبل كربلاء أعدّه وهيأه للقيام بهذا الدور الإلهي العظيم.

فقد قال النبي صلى الله عليه وآله: حسين مني وأنا من حسين.. إن هذا التعبير عندما يصدر من خاتم الأنبياء والمرسلين تكون له دلالات خاصة عميقة تنسجم مع الحسابات الإلهية في هذا الكون وتنسجم مع استحقاق الحسين عليه السلام لهذا المقام في ديمومة واستمرار الأثر الحقيقي للرسالة الإلهية الخاتمة، الحسين عليه السلام قبِلَ هذا الدور لأن القرآن الكريم هو الذكر وهو رسالة الإصلاح الحقيقية.. ولا يتحقق إصلاح إلا بذكر الله سبحانه، وهو سلام الله عليه خرج مصلحاً بهذا المستوى الواسع من الإصلاح، كما قال: (إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي).

وأما جواب السؤال الثاني: فإن من المعلوم أن هذا الحجم الهائل من الإصلاح لا يمكن أن يتحقق بدون ثمن باهض.. ومن هنا كانت التضحية والحال هذه عظيمة جداً، بل أستطيع القول: إن لساني القاصر المقصر المذنب وقلبي المريض.. ووجودي المحدود عاجز عن وصف ذلك الثمن وتلك التضحية

الإلهية الكبرى.

إن الثمن كان قتل الحسين عليه السلام آخر سبط من أسباط الأنبياء في الكون وسبي عائلة النبي الخاتم بما لم يرَ له التاريخ نظيراً لا قبل واقعة الطف ولا بعدها! إذ لا يوجد في تاريخ الإنسانية أمة قتلت ابن بنت نبيها وسبت عائلة وحرم ذلك النبي إلا الأمة الإسلامية!!! في كربلاء.

وبذلك صار الحسين عليه السلام ذكر الله الأكبر.. لأن الله سبحانه يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾[1]، والانحراف الهائل أصاب هذه الرسالة الخاتمة المذكرة بالله تعالى.. وكأن هناك نداءً إلهياً موجهاً لمن في السموات ومن في الأرض، من الذي يقوم بذلك ويقدم هذا الثمن العظيم من إحياء رسالة الله الخاتمة المنقذة للبشرية من الهلاك والضياع؟! من منكم أيها الخلق؟! يا أيها الأنبياء! يا أيها الرسل! يا أيها الأسباط! يا أيها المصلحون! من يقوم بذلك؟

فكان الجواب من سيد الشهداء عليه السلام: نعم يا ربِّ! لبيك يا ربِّ! أنا سأقدم التضحية الكبرى من أجل دينك وذكرك وصراطك القويم!

---

(١) الأحزاب: ٤١.

إخواني: أستطيع القول أن العقل عاجز عن تفسير كربلاء! الفقه عاجز عن الإحاطة بكربلاء! كربلاء لا يدركها إلا القلب المطمئن بذكر الله.. لأن القلب هو حرم الله.. وكربلاء كانت حرم الله..

إن كربلاء مثّلت الذكر الإلهي الأكبر الذي هدى وزكّى الناس أجمعين، ولذلك نرى نتائج كربلاء وعاشوراء قد أثرت في جميع الناس بمختلف أديانهم وقومياتهم ومللهم وثقافاتهم.. المسيحي يكتب عن الحسين! اليهودي يكتب عن الحسين! الصابئي يكتب عن الحسين! الهندوسي يكتب عن الحسين! حتى الملحد يكتب عن الحسين.. فضلاً عن المسلمين بجميع مذاهبهم! فكل التيارات الفكرية والديانات السماوية اهتدت بالحسين عليه السلام.

فهل سألنا أنفسنا كيف قبِلَ الإنسان الخارج عن دائرة الإسلام بالحسين مصلحاً وقدوة؟! الحسين إمام المسلمين، كيف يكتب المسيحي مثلاً كتاباً يمجد فيه الحسين ويعظم مقامه وإصلاحه الأكبر؟!

إن سبب ذلك مقدار التضحية التي حصلت يوم عاشوراء، فتضحية الحسين قد رجَّت كل أركان الكون ونواميس

الوجود بحيث حتى الناس الذين لا يؤمنون بالإسلام وبنبوة النبي الخاتم صلى الله عليه وآله قد وصلتهم ارتدادات هذه التضحية والأمثولة السماوية العظمى، وهذا ما نقصده بأن الحسين عليه السلام هو (ذكر الله الأكبر).

وعلى ضوء هذا المعنى يتجلى قول النبي الأكرم: حسين مني وأنا من حسين! وفي هذا السياق جاءت الكلمة المشهورة: أن الإسلام محمدي الوجود حسيني البقاء..

قال النبي صلى الله عليه وآله: إن لقتل ولدي الحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد أبداً[1]!

ومن هنا وردت هذه الألفاظ والعبارات في زيارات الحسين عليه السلام وهي: السلام عليك يا ثأر الله وابن ثاره.. أي أضيف الثأر لله سبحانه.. لأنه الممثل الحقيقي لرسالة الله عز وجل فعندما يقتل يكون ثأره ثأر الله سبحانه لا ثأر شخص بعينه لأنه فانٍ في الله فالاعتداء عليه اعتداء على الله.. وهتك حرمته هتك لحرمة الله مباشرة.

الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء فضح الظلم.. وفضح الفساد.. وفضح الباطل والانحراف والشر.. أي أن الباطل

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج١٢، ص٥٥٦.

والشر والفساد والانحراف كان موجوداً لكنه مغطى محتجب ببعض العناوين والمسميات.. لكن ما حدث في الطف كشف ذلك وفضحه إلى يوم القيامة، فإذا كنتم تطلبون الحسين، فما ذنب النساء والأطفال؟! إذن أنتم في أخسّ درجة من درجات الشر والضلالة والفساد! شاء الله أن يراني قتيلاً ويراهن سبايا.. والآن أحب أن نقرأ واقعة كربلاء من زاوية أخرى.

إن الله سبحانه عزيز عليه أن يرى أو يسمح تكويناً بأن يداس جسد الحسين الطاهر بحوافر الخيل.. أو تنتهك حرمته بهذه الصورة التي ينقلها التاريخ والتي اهتزت لها أظلة العرش حسب بعض الروايات، إذن كيف حدث ذلك ولماذا؟ في هذه النقطة تظهر عظمة سيد الشهداء عليه السلام، نحن منغمسون بالمعاصي والذنوب وتحيط بنا الغفلة والابتعاد عن الله سبحانه.. ولسان حال الحسين عليه السلام يقول: من أجل هذه الرسالة الإلهية.. ومن أجل إرجاعكم لطريق الهداية.. وإنقاذكم من الهلاك الحقيقي.. والسير بكم نحو الكمال والنور الإلهي.. وقلع جذور الفساد والظلم من الساحة الإنسانية.. سوف أقتل بهذه الطريقة وأكون تحت حوافر الخيل.. وتسبى حرمي وعيالي.. وأنا سبط رسول الله.. وسيد شباب أهل الجنة! هل تريدون أكثر من هذا التذكير

بالله سبحانه؟! ولذلك كانت لقتله سلام الله عليه حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد أبداً.. إنها شعلة مستمرة متوهجة بالإيمان تملأ قلوب الأحرار في كل العالم.. بل نجد بالوجدان أن الشخص الذي يعزم على ارتكاب المعصية ويتذكر الحسين عليه السلام سوف يرتدع وجدانياً عن ارتكابها.. بل ترى أن بعض الأشخاص غير الملتزمين دينياً عندما يدخل شهر محرم الحرام يتوقف عن ارتكاب المعاصي واقتراف الذنوب! هل سألنا كيف حصل ذلك تكوينياً؟ وماذا حصل في نفوس هؤلاء لكي يبتعدوا عن المعصية بهذا الشكل؟

إن حجم التذكير الذي قام به الحسين عليه السلام أشبه بشحنة عظيمة من الإيمان انفجرت في الكون وكانت مذكرة للخلق أجمعين.. فأخرجت النفوس والقلوب من سبات الغفلة والسكوت.. ولذلك القلوب وحدها هي التي تستطيع إدراك ما حصل يوم عاشوراء.. ولذلك اتجه الحسين عليه السلام إلى القلوب التي هي حرم الله لكي يطهرها ويزكيها ويجعلها مشرقة بنور الحق سبحانه وتعالى.. وكأن الله سبحانه خاطب الحسين عليه السلام: أنت طهرت القلوب من أجل ذكري بهذه التضحية العظيمة.. إذن لأجعلن مرقدك وكل شيء يتعلق بوجودك مذكراً بالله سبحانه!

وبذلك نعرف معنى قولهﷺ: إن الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة.. فهناك ظلمات والحسين مصباحها الهادي.. وهناك بحور من الضلالة وسفينة الحسين هي المنجية.. وهذا المعنى هو ما أريد تسميته بالذكر الإلهي الأكبر وأربطه بمقام وبحث الذكر الإلهي.

قال السيد الشهيد السعيد محمد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ:

الهدف السابع المحتمل لحركة الحسينعليه السلام:

إعطاء الأمثولة للدين الحنيف القويم، وأنه يستحق هذا المقدار العظيم من التضحية والفداء في سبيل الله وفي سبيل إقامة الأحكام الإسلامية والشعائر الدينية.

وينبغي هنا أن نلاحظ أن الأمر إنما هو مربوط بالله سبحانه قبل أن يكون مربوطاً بشيء آخر، لأن الدين على عظمته، إنما اكتسب الأهمية لأنه أمر الله ونهيه، والرسول إنما اكتسب الأهمية لأنه رسول الله، والمعصومون إنما حصلوا عليها، لأنهم أولياء الله، إذن، فالأمر مربوط بالله مباشرة وليس بغيره لا من قريب ولا من بعيد، وهو الذي يستحق الفداء في الحقيقة، وإن كان هو في غنى عن العالمين، ولذا ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿فَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾[1]

(١) الصافات: ١٠٧.

يعني الحسين عليه السلام، وهو لم يفدِ إسماعيل الذبيح عليه السلام، كما هو ظاهر السياق، بل وقع السياق في سبيل الله وفي طريق توحيد الله وطاعته، وهو نفس الطريق الذي ذبح من أجله إسماعيل عليه السلام، وبعث فيه الأنبياء وأرسلت الكتب السماوية وحصل ما حصل.

وفي هذا السبيل قال الحسين عليه السلام: (هوّن ما نزل بي أنه بعين الله) وفي هذا السبيل أيضاً روي عن زينب العقيلة بنت علي أمير المؤمنين عليهما السلام أنها بعد المقتل وضعت يديها تحت الجثمان وقالت: اللهم تقبّل منا هذا القربان، وفي بعض الروايات: هذا القربان القليل، يعني القليل مهما كان شريفاً وعظيماً أمام عظمة الله اللامتناهية وأمام استحقاقه اللامتناهي للتضحية والفداء.

إذن فالمسألة الأهم من كل شيء هي أهمية التوجُّه إلى الله والتضحية في سبيله[1]..

ولذلك نرى أن الحسين عليه السلام عندما خرج من مكة أخذ يصرح بما يشير إلى هذا الهدف الإلهي لكي يعطي بعض أصحابه شيئاً من الحقيقة التي دعته لاتخاذ هذا الموقف، فنراه يقول:

خُطَّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة وما

---

(١) أضواء على ثورة الحسين، السيد الشهيد محمد الصدر: ص١٠١ وما بعدها.

أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير لي مصرع أنا لاقيه - إذن ليس المقصود من الخروج الانتصار العسكري أو السياسي أو الحكم- كأني بأوصالي هذه تقطّعُها عُسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء، لا محيص عن يوم خطّ بالقلم، رضا الله رضانا أهل البيت نصبر على بلائه ويوفّينا أجور الصابرين..

من كان فينا باذلاً مهجته وموطِّناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا - هذه هي المواصفات التي يريدها الحسين للمشتركين معه في ذلك الموقف- إني راحل مصبحاً إن شاء الله..

ثم يقول: من لحق بي استشهد ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح! أي فتح يتحدث عنه الحسينعليه السلام وهو يقول: إن عسلان الفلوات ستقطّع أوصالي؟!

وخير لي مصرعٌ أنا لاقيه؟!

إنه يقصد الفتح الإلهي الأكبر الذي سيتحقق في كربلاء..

تصوروا حالنا بدون كربلاء وعاشوراء.. أين ينتهي أمرنا عقائدياً وإيمانياً وأخلاقياً؟!

● مقتطفات روائية في فضل الذكر الإلهي

● قال الإمام الصادقعليه السلام: ما من مجلس يجتمع فيه أبرار وفجار، فيقومون على غير ذكر الله عز وجل إلا كان حسرة

عليهم يوم القيامة(١).

● عن الإمام الباقر عليه السلام، قال: (مكتوب في التوراة التي لم تُغيّر أن موسى عليه السلام سأل ربه فقال: يا ربّ أقريبٌ أنت مني فأناجيك، أم بعيدٌ فأناديك؟ فأوحى الله عز وجل إليه: يا موسى أنا جليس من ذكرني، فقال موسى: فمن في سترك يوم لا ستر إلا سترك؟ فقال: الذين يذكرونني فأذكرهم ويتحابون فيَّ فأحبهم، فأولئك الذين إذا أردت أن أصيب أهل الأرض بسوء دفعت عنهم بهم)(٢).

● وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: (قال الله عز وجل: من ذكرني في ملأ من الناس ذكرته في ملأ من الملائكة.. وعنه عليه السلام: يا ابن آدم أذكرني في ملأ أذكرك في ملأ خير من ملئك)(٣).

● وعن الإمام الصادق قال: (ما من شيء إلا وله حد ينتهي إليه إلا الذكر فليس له حدّ ينتهي إليه، فرض الله عز وجل الفرائض فمن أدّاهن فهو حدّهن، وشهر رمضان فمن صامه فهو حدّه، والحج فمن حج فهو حدّه، إلا الذكر فإن الله عز وجل

---

(١) أصول الكافي: الباب ٢٣٠، كتاب الدعاء، حديث ١.

(٢) أصول الكافي: الباب ٢٣٠، كتاب الدعاء، حديث ٤.

(٣) المصدر نفسه: الحديث ١٢ و ١٣.

لم يرضَ منه بالقليل ولم يجعل له حداً ينتهي إليه. ثم تلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[١])[٢].

● وعنه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من أكثر ذكر الله عز وجل أحبه الله، ومن ذكر الله كثيراً كتبت له براءتان: براءة من النار وبراءة من النفاق[٣].

● وعنه عليه السلام: (من أشد ما فرض الله على خلقه ذكر الله كثيراً، ثم قال: لا أعني سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وإن كان منه، ولكن ذكر الله عند ما أحلّ وحرّم، فإن كان طاعة عمل بها وإن كان معصية تركها)[٤].

(١) الأحزاب: ٤١-٤٢.
(٢) أصول الكافي: الباب ٢٣١، كتاب الدعاء، حديث ١.
(٣) المصدر نفسه: الحديث ٣.
(٤) الكافي، ج١، باب اجتناب المحارم، حديث ٤.

الفهرس

المبحث الأول

المبحث الثاني

المبحث الخامس

المبحث السادس

المبحث السابع

المبحث الثامن

المبحث التاسع

المبحث العاشر